حلقات سلسلة :

كلمة رمضانية

١ – ٢٩

للشيخ:



تفريغ السلسلة المرئية:

كلمة رمضانية

من الحلقة الأولى

حتى الأخيرة التاسعة والعشرين

من ١ رمضان ١٤٣٩ - ٢٠١٨/٥/١٧

حتى ٢٩ رمضان ١٤٣٩ - ٢٠١٨/٦/١٤

لفضيلة الشيخ:

أبي قتادة الفلسطيني (عمر محمود أبو عمر)

حفظه الله ورعاه

تفريغ العبد الفقير لرحمة ربه:

أبي عبد الله الرتياني

الحلقة الأولى:

من فضائل شهر رمضان

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه:

أقبل علينا هذا الشهر العظيم، وهو شهر رمضان المبارك؛ وهذا الشهر هو شهر البركات، وشهر الطاعات، وشهر الصوم، وشهر القرآن؛ والله سبحانه وتعالى فضّله على باقي الشهور بأن أنزل فيه القرآن، وجعل فيه أعظم العبادات، يختص بعبادة هي فريضة على المسلمين، ألا وهي فريضة الصيام.

الله عز وجل يقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، فذكر هاهنا في هذه الآية أن محطَّ نزول القرآن كان في هذا الشهر، ولم يعين الليلة التي نزل فيها القرآن، وربما يخطر على البال بأن القرآن تنزل في شهر رمضان تنزلًا متتابعًا حتى استوعبه كله؛ ولكن جاء في سورة الدخان ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾، فعينت هذه السورة أن القرآن نزل في ليلة واحدة، ولم تعين هذه الليلة؛ فجاء قوله سبحانه وتعالى في سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ فعين الليلة التي نزل فيها القرآن في ليلة واحدة؛ هذه الليلة سماها الله سبحانه وتعالى ليلة القدر، وذلك لعظيم قدرها، أو لما ينزل فيها من أقدار الخلق، من توزيع الأقدار عليهم، من توزيع الرزق والأعمال؛ ولم تعين هذه الليلة في أي يوم من أيام هذا الشهر، فجاء النبي ﷺ وعينها في العشر الأواخر من هذا الشهر، ثم عينها في أيام الوتر من أيام العشر الأواخر من هذا الشهر.

الله عز وجل قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وذلك لأن الحديث مساقه عن هذا الشهر، بخلاف قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾، فالحديث يدور حول القرآن، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ الحديث يدور حول القرآن، بخلاف هذه الآية من سورة البقرة وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ فالحديث يدور عن هذا الشهر؛ وإنما تقدم الأمور -كما قال أئمة البيان والبلاغة- تقدم الأمور بحسب أهميتها وحضورها في النفس؛ والحديث هنا يدور حول هذا الشهر العظيم.

هذا الشهر جاءت فضيلته في أحاديث كثيرة في أنه شهر القرآن، والذي أنزله الله عز وجل فضيلة له أن جعل الصيام فيه فريضة على المسلمين، فجاء فضله في أحاديث كثيرة..

أعظم حديث في فضل هذا الشهر، هو حديث «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي، وأنا أجزي به؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء**»؛ فهذا الحديث اختلف أهل العلم فيه إلى

أقوال كثيرة، أوصلها بعضهم إلى أربعين قولًا في تفسير «**والصوم لي وأنا أجزي به**» [(١)]، ولم يصل إلينا –في الحقيقة– إلى أهل العلم في كتبهم المعاصرة هذه الأقوال الكثيرة المتعددة؛ ولكن اعتدنا عند الجامعين لمثل هذه التفسيرات المتعددة –كما نرى ذلك في فتح الباري حين يذكر الأقوال المختلفة والمتعددة في المسألة الواحدة– لا نجد هذا العدد الكثير، إنما نجدها تُفَرَّع ثم تعود إلى أصول واحدة.

القصد من هذا: إن أعظم ما قيل في تفسير قوله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «**والصوم لي وأنا أجزي به**»، إلى أقوال:

القول الأول: بأن فضل الصيام لا يحده حد، ولذاك جاء في الحديث: «**والصوم لي وأنا أجزي به، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف**»؛ فسياق الكلام يدل على أن الأجر مضاعف، فهو له.. لقوله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾، وجاء في حديث علي رضي الله تعالى عنه أن الصوم هو الصبر؛ ولا شك أن الصوم صبر، لأنه صبر على الأنواع الثلاثة من الصبر.

الصبر ثلاثة أنواع: النوع الأول صبر على الطاعات، والثاني صبر على ترك المعاصي، والثالث صبر عما تشتهيه النفس؛ فالصيام فيه هذه المعاني الثلاثة. فهو صبر على ترك الشهوات –الطعام والشراب والفرج–، وصبر على ترك المعاصي، وكذلك صبر على الطاعة؛ فإذاً: هذا هو الذي قال الله عز وجل يدخل فيه دخولا أوليا ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾.

الحسنة مقررة في الابتداء أنها تعود إلى عشر أمثالها، كما في سورة الأنعام ﴿**مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾، هذا هو أصلها، بعد ذلك ترتقي الحسنة بحسب أعمالها، بحسب مقامها، بحسب فضلها، بحسب إخلاص المرء فيها..

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ**﴾ الحسنة بسبعمائة ضعف؛ والله يضاعف، أي: هناك أكثر.

ولذلك جاء رجل إلى النبي ﷺ بناقة مخطومة –كما في صحيح مسلم– فقال له ﷺ: «**إن لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة**»، فجعلها مضاعفة.

---

(١) قال الحافظ الدميري: ذكر الطالقاني فيه خمسة وخمسين قولاً. شرح رياض الصالحين لابن كمال باشا (٥/٣٢٧).

قلت –الشيخ–: من تأمل الأقوال الكثيرة في المسألة الواحدة وجدها ليست كذلك، بل تجدها تعود إلى أقوال قليلة، والبقية تكون متقاربة في المعنى.

لكن ها هنا ذكر هذه الأقوال المتعددة يدل على بركة هذا المعنى ومجده، وأن النفس العالمة تذهب فيه مذاهب شتى، ولا يمنع أن تكون كلها في نفس الوقت.

فالأعمال تضاعف فوق العشر أضعاف إلى أضعاف كثيرة، بحسب أهمية العمل، مقامه؛ مثلاً: من أنفق قبل الفتح ليس كمن أنفق بعد الفتح، من أنفق عن جوع ومسغبة وضعف وفقر ليس كمن ينفق عن سعة وغنى؛ فالأعمال تُضاعف.. ولذلك هناك في الحديث القدسي قال: «**والصوم لي**»، أي: إن جزاءه لا يعلمه إلا الله عز وجل.. هذا معنى.

المعنى الثاني، وهو معنى قاله سفيان بن عيينة –وسفيان بن عيينة هذا قال عنه الشافعي رحمه الله: لولا سفيان ومالك لذهب علم أهل الحجاز– فسر هذا الحديث «**والصوم لي**» أن الصوم لا يذهب بسبب المعصية..

أنتم تعلمون أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿**إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ**﴾، وكذلك جاء في القرآن وفي السنة ما يدل على أن الحسنات تذهب السيئات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ۝٢**﴾ فجعل المعصية برفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ سبباً لحبوط العمل؛ وقوله ﷺ: «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**» فدل على أن الأعمال تحبط حبوطًا ليس تامًا ولا عامًا بسبب المعاصي؛ والذي يحبط الأعمال كلها قوله سبحانه وتعالى: ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾، الذي يحبط الأعمال كلها هو الشرك والكفر ﴿**وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ۝٨٨**﴾.

فقوله ﷺ في الحديث القدسي: «**والصوم لي**»، قال سفيان: دل هذا على أن الحبوط لا يلحق الصيام «**فإنه لي**». هذا شأن العبد مع الأعمال فإنها تحبط بالمعاصي والصوم لا يحبط؛ وتذهب الأعمال الصالحة عن العبد بسبب معاصٍ، تؤخذ يوم القيامة من حسناته لترد بها سيئاته؛ فمثلًا: الذي يقتل، الذي يسرق المال، الذي يغتاب؛ تؤخذ من حسنات هذا العبد وتوضع في ميزان من ظلمه، ومن اغتابه، ومن سرقه، ومن أكل ماله.. إلخ. ولكن الصوم لا يقع فيه هذ المعنى «**فإنه لي**»، أي: لا يتم استبدال الصوم بسيئات العبد وإعطاء فضل الصيام وأجر الصيام لغيره.

هذا أجلّ ما قيل في تفسير قوله ﷺ في الحديث القدسي: «**والصوم لي وأنا أجزي به**»، هذا أجله؛ وهذا الحديث هو أعظم حديث في فضل الصيام.

وجاءت أحاديث كثيرة في فضل الصيام:

قوله ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**».

هذا فوق فضل الفريضة وأجر الفريضة؛ الفريضة لها قوتان: القوة الأولى أنها تحصل لك الأجر، والقوة الثانية أنها تبعد عنك الإثم ما لو تركتها، لأنه إن لم تقم بالفريضة وقع عليك الإثم والوزر والسيئة، فحين تقوم بالفريضة هذا

الوزر يذهب عنك. إذًا: القوة الأولى أنك تحصل الحسنات والأجور، والقوة الثانية أنها تبعد عنك إثم الترك ما لو تركت.

وهاهنا فضل آخر، وهو فضل تكفير سيئات أخرى غير سيئة ترك هذا العمل؛ فلك الأجور العظيمة، وذاك في قوله ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**». وقوله: «**إيماناً واحتساباً**» من أجل أن يستحضر المرء النية حين الصيام، وذلك بأن يقوم بالصيام وأن يصوم طاعة لله عز وجل.

عمل النية عمل مهم على المرء أن ينتبه له؛ كان السلف يهتمون بفقه النية.. سئل الإمام سفيان الثوري رحمه الله عن نية الرجل حين يصلي، ماذا ينوي؟ هذا السؤال لا يخطر على بال أحدنا اليوم، لا يخطر، إذا قام يصلي ماذا ينوي؟ هناك نيات.. المرء منا يصلي من أجل أن يكسب الأجر، يصلي من أجل أنها عبادة، لكن هناك نيات عظيمة.. سئل سفيان، وسفيان هو إمام الورع الذي علم الأمة الورع، من السلف الذين علموا الأمة الورع؛ فقال سفيان: ينوي مناجاة ربه. انظر!! هذه نية أخرى وهي أنه يناجي الله، والنجوى هي حديث السر والخفاء، فأن ينوي أنه يناجي الله سبحانه وتعالى، أن يحدث ربه، وأن يسمع ما يقول ربه سبحانه وتعالى له..

فعليكم في هذا الصوم وعليكم في هذا الشهر باستحضار النيات العظيمة:

النية الأولى: أنك تمتثل أمر الله عز وجل ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ هذه النية الأولى، أن تنفذ ما كتب الله عز وجل عليك. هذه أعظم النيات، لأن فيها معنى العبودية والامتثال وامتثال الطاعة.

النية الثانية: أن تنوي بأن تحصل الأجر الذي كتبه الله عز وجل لهذا الصيام مما تقدم.. الأجور والحسنات.

ومن ذلك –من هذه النيات– أن تدخل يوم القيامة من باب الريان؛ وباب الريان باب مبالغة من الري، لأن الري عطاء من جاع وعطاء يقابل من عطش.. من الري.

فأن تنوي أن تدخل في امتثال أمر الله، وأن تُحصل الأجور، وأن تدخل باب الريان.. وأن تحصل لك العبودية التامة في اليوم كله..

العبادات –أيها الأخوة الأحبة– هناك عبادات وقتية وهناك عبادات دائمة؛ مثلًا: عبادة اللحية، تصور أن الرجل الذي يحلق اللحية –عبادة تلازمه في كل ثانية، في كل لحظة– الذي يحلقها هذه العبادة تفوته، فاتته عبادة تدوم معه في كل وقت.. إذا صلى المرء يصلي لوقت، لا يصلي طوال النهار؛ إذا زكى يخرج الزكاة بمقدار هذه الزكاة في هذا الوقت؛ لكن هناك عبادات تدوم مع المرء، تدوم طوال نهاره، ومن ذلك عبادة الصيام.. تصور وأنت صائم، في كل لحظة أنت ذاكر لله وإن لم تذكر، في كل لحظة أنت في عبادة وإن لم تقم بالعبادة، في كل لحظة.

فالصيام فضيلته عظيمة في هذا الباب، ولذلك «**والصوم لي وأنا أجزي به**».

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

الحلقة الثانية:

بعض فضائل الأعمال في شهر رمضان

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله:

الأعمال تكون عظيمة بكونها في ذاتها عظيمة، ومن ذلك ما تحدثنا به وما سنتحدث به عن الصوم.

الصوم عظيم؛ ومن معاني قوله ﷺ في الحديث القدسي: «**والصوم لي وأنا أجزي به**» ما قاله بعض أهل العلم من أن الصوم هو العبادة الوحيدة التي لا تنصرف إلا إلى الله؛ لأن بعضهم استقرأ العبادات في الأديان الوثنية والأديان الشركية الأرضية، فلم يجد عندهم فضيلة الصوم تعبدًا لآلهتهم، وإنما يقومون بالصوم لأسباب عندهم، كما في البوذية والبرهمية، عندهم الصيام ولكن لا يتعبدون به. وفي الإسلام فقط في دين الله عز وجل –الإسلام: المقصود هو دين الأنبياء، لأنه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فكل الأمم السابقة كتب الله عليها الصيام؛ فالصيام عبادة اختص الله عز وجل بها أمة الإسلام، من أجل أن تتقرب بهذه العبادة إليه.

هذا معنىً مهم؛ ويدخل في هذا المعنى العظيم أن العبادات تكون محبوبة لذاتها عند الله عز وجل، كما هو شأن قراءة القرآن؛ أعظم العبادات كما يقول سفيان الثوري وهو الإمام العظيم، يقول: أعظم العبادات عند الله عز وجل قراءة القرآن في الصلاة.

أعظم العبادات قراءة القرآن في الصلاة، هذه عبادة بعض أهل العلم قال: أجمع أهل العلم على أنها أجلُّ العبادات.

أعظم العبادات قراءة القرآن في الصلاة. المرتبة الثانية: قرآن القرآن خارج الصلاة. المرتبة الثالثة: هي الصوم. المرتبة الرابعة: هي ذكر الله عز وجل.

فكيف إذا اجتمعت –هذه المعاني التي ذكرناها وهذه المراتب التي ذكرت– في عبد من عبيد الله عز وجل؟!!!

فإذًا: هناك عبادة تكون عظيمة بذاتها، وهناك عباداتٌ تلحق بهذه العبادة، فيصبح لهذه العبادة العظيمة بذاتها فضل آخر، ويصبح لهذه الأعمال كذلك فضيلة في هذا الوقت.

ومن ذلك أن الصيام محبوب بذاته إلى الله سبحانه وتعالى، وتزيده الأعمال محبة عند الله، الأعمال التي يحبها الله عز وجل؛ ومن ذلك أن يدع قول الزور، وأن يدع الرفث، وأن يكثر قراءة القرآن، وأن يتصدق في هذا الشهر؛

هذه الأعمال تزيد هذا العمل محبة عند الله، وهذه الأعمال يزيد فضلها في هذا الشهر؛ ولذلك من المطلوبات التي يجب على المرء أن يهتم بها في هذا الشهر، هو أن يكثر من الطاعات، أعظم الطاعات -كما تقدم- في هذا الشهر هي أن يقرأ القرآن، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ فهذا الشهر هو شهر القرآن.

والسلف في هذا أمرهم عظيم.. وتعلموا هذا من مراجعة جبريل لنبينا ﷺ القرآن في هذا الشهر، كان جبريل يراجع نبينا ﷺ في اعتكافه القرآن كله، وفي سنة وفاته -أي: في رمضان الذي توفي بعده- راجعه جبريل القرآن مرتين.. فهذا الشهر هو شهر القرآن.

كان من سيرة السلف في هذا الشهر ما ذكر عن قتادة رحمه الله، كان في طوال العام يختم القرآن في أسبوع.. وهذا تقدم الحديث فيه ولكن نذكر به..

قراءة القرآن في أسبوع من خلال "فمي بشوق" -كان الصحابة وصح هذا عنهم أنهم كانوا يحزبون القرآن هذا التحزيب، أي: يقسمونه هذا التقسيم- أن يقرأوا القرآن في أسبوع وذلك فيما جمعه أهل العلم في كلمة "فمي بشوق":

في اليوم الأول: يقرأ "الفاتحة" إلى "المائدة"، يقرأ "البقرة" و "آل عمران" ويقرأ "النساء"، في اليوم الأول ثلاثة ولا تحسب الفاتحة.

في اليوم الثاني يزيد سورتين، فيقرأ خمس سور، "فمي" من "المائدة" إلى "يونس".

وفي اليوم الثالث يزيد سورتين، فيقرأ سبع سور، وذلك من "يونس" إلى "بني إسرائيل" أي: الإسراء، "فمي بشوق" الباء "بني إسرائيل".

وفي اليوم الرابع يقرأ من "الإسراء" -بني إسرائيل أو الإسراء- إلى "الشعراء".

وفي اليوم الخامس يقرأ من "الشعراء إلى -"فمي بشوق" واو- إلى ﴿وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ﴾.

والذي بعده يقرأ من "الصافات" إلى "ق".

واليوم الأخير يقرأ من "ق" إلى نهاية القرآن.

هكذا كانت قراءة الصحابة للقرآن، في كل أسبوع يختمونه مرة، هذه مرتبتهم؛ وهناك ناس يرتبون غير ذلك، ربما يقرؤونه في عشرة أيام، يقرأ كل واحد كل يوم ثلاثة أجزاء بتقسيمات المتأخرين، لأن هذا التقسيم -وهو تقسيم الأجزاء والأحزاب- إنما فعله الحجاج ولم يكن الصحابة يعرفونه، وهو تقسيم عليه كثير من الملاحظات، ولكن جرى عليه الناس والعرف، ولا ترقم المصاحف اليوم إلا به، إلا ما يطبع في بلاد الهند وباكستان فلهم ترقيمات أخرى في تقسيم القرآن وتحزيبه؛ وبعضهم يقرأ القرآن مرتين في شهر؛ وبعضهم يقرأه مرة؛ ونهى العلماء -كما ذكر

ذلك كثير من أهل العلم كإسحاق بن راهويه والإمام أحمد- كانوا يكرهون أن يقرأ المرء القرآن في أكثر من أربعين، ويعلل ذلك الإمام أحمد رحمه الله بأنه إذا ترك المرء القرآن أربعين يومًا نسيه، ونسيان آية عند كثير من العلماء كبيرة من الكبائر، ذكر هذا من صَنَّف في الكبائر؛ وأفضل من جمع فيها ما كتبه ابن حجر الهيتمي في "الزواجر عن اقتراف الكبائر"، وذكر هذه الكبيرة، وهي مذكورة في كتب الفقه.

إذًا: أعظم الأعمال في هذا الشهر هو أن تقرأ القرآن، وأعظم حال في قراءة القرآن هو أن تقرأه في الصلاة، وذلك بقيام الليل؛ ولذاك جاء في الحديث: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**».

وأفضل -هذا قول جماعة من أهل العلم منهم الإمام الشافعي- أفضل وقت للقيام هو بعد النوم، وذلك لمن استطاع عليه؛ يعني: لو يرجع المرء بعد العشاء فلم يصل جماعة وإنما صلى لوحده بعد أن ينام، وهو التهجد ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾. التهجد هو أعظم عبادات قيام الليل، لأن قيام الليل متفاوت، والصحابة والعلماء والسلف كانوا يتفاوتون في القيام؛ أعظمهم ما قاله النبي ﷺ خير القيام قيام داود: «**كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه**» هذا خير قيام كما قال النبي ﷺ وخير الصيام صيام داود: «**كان يصوم يومًا ويفطر يومًا**» (٢) **ولا يأكل إلا من عمل يده**.

ثم هناك قيام آخر، وهو أن يقوم المرء الثلث الأخير من الليل، وذلك بأن لا ينام بعده لئلا يفوته السحر؛ وهناك من العلماء -وهي أدنى درجات القيام- من يقوم ويصلي بين المغرب والعشاء ولا يفوته السحر، هذه أدنى درجات قيام السلف للّيل، أن يصلوا بين المغرب والعشاء، والصلاة بين المغرب والعشاء تدخل على الصحيح في قيام الليل، لأن الليل قد دخل ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ فإذا دخل الليل فصليت كان من قيام الليل، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾ فسره بعض السلف بالصلاة بين المغرب والعشاء، ولكن لا يفوتهم دعاء السحر ولا صلاة السحر، ولذاك كانوا يقومون آخر الليل، وقت السحر القليل الذي يقدرون عليه.

والمرء عليه ألا يفوته قيام الليل ولو بأربعين آية؛ ذُكر لبعض أهل العلم: ما قولكم فيمن لا يقوم الليل؟ قال: هذا رجل توسد القرآن -لم يكونوا يتصورون قط أن حافظ القرآن ينام عن قيام الليل- هذا توسد القرآن.

فأقله ما كان يفعله بعض السلف كالإمام الشافعي رحمه الله، وذلك بأن يقوم بأربعين آية؛ وخيرهم من يقوم بحزبه في الليل -ما ذكرناه من التحزيب- أن يقوم في الليل ويقضي حزبه في الليل، هذا خيرهم.

---

(٢) قال رسول الله ﷺ: «**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يومًا، ويُفطرُ يومًا**».

إذًا: من الأعمال التي تعظّم رمضان وتَعْظُم في رمضان هي الصلاة، وفيها قراءة القرآن.

وأنا أنصح الناس -وهذا يفوتهم- كثير من الناس يجلس ويقرأ القرآن دون صلاة!! أنا أنصحك: اجلس على الكرسي إن كنت تعجز عن القيام، وصل.. اقرأ الفاتحة، ثم اجلس على كرسيك واقرأ القرآن كما شئت، وأنهِ حزبك، وأنهِ ما تريد من الوقت، فأنت تكون قد قرأت القرآن في الصلاة بدل أن تقرأ القرآن خارج الصلاة.

طبعا هذا لمن لا يقرأ وهو في سيارة، أو يقرأ وهو يعمل؛ هذا لا يستطيع أن يصلي. ولكن إذا جلس في بيته، أو جلس في المسجد، أو جلس في مكان خالٍ، فأنا أنصحه ألا يقرأ القرآن إلا في الصلاة؛ إلا أن يكون عاملًا، سائقًا، راكبًا، أو ما شابه ذلك.. هذا الذي أنصح به.

ومن ذلك -من الأعمال- أن يكثر من ذكر الله، «يا رسول الله، كثرت علي شرائع الإسلام، فدلني على عمل أتشبث به. قال: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**».

أنا أعجب من الناس يمشون وأفواههم مغلقة، وفي قدرتهم ووسعهم أن يجنوا الحسنات الكثيرة!! هذه الأذكار وهذه الباقيات الصالحات، هذه أعمال عظيمة؛ التسبيحة الواحدة عند الله عز وجل شجرة في الجنة، وكما يقول إبراهيم عليه السلام لنبينا ﷺ: «**يا محمَّد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة قيعان، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر**».

إن فاتك أي عمل من الأعمال لا تقدر عليها، من الصدقة، من القيام لعجزك، فإياك أن يفوتك ذكر الله سبحانه وتعالى؛ وأنا أذكرك بصنيع إمام المحدثين وأمير المؤمنين في الحديث، وهو أبو هريرة رضي الله تعالى عنه، كان يسبح في كل يوم وليلة اثنتي عشرة ألف تسبيحة.

تذكر هذا.. والله عز وجل يغفر لنا ولكم.

والحمد لله رب العالمين.

الحلقة الثالثة:

تأكيد حرمة المعاصي في شهر رمضان

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه:

ومن مهمات الصيام أيها الأخ الحبيب:

حين تعلم فضل الصيام، والنيات المتعددة التي عليك أن تستحضرها ليَعظُم الأجر؛ فمن مهمات الصيام بعد ذلك أن تعمل بالأعمال العظيمة، التي تعظم درجة الصيام عند الله عز وجل؛ كذلك من مهمات هذا الصيام ترك المعاصي، لئلا تفسد عليك درجة صيامك.

لا أريد أن أنبه تنبيهًا يؤدي إلى إفساد المعاني، ولكن اعلموا أن بعض أهل العلم كابن حزم يرى أن مجرد المعصية في الصيام تفسد الصيام!! ابن حزم –وهذا القول مردود، ولكن أنبه إلى أن الأمر عظيم، وإلى أن الخطر شديد، وعلى المرء أن يجتنب المعاصي في هذا الصيام لئلا يفسد عليه صيامه– ابن حزم يرى أن الغيبة تفسد الصيام، أن النظر إلى المرأة يفسد الصيام، أن الكذب يفسد الصيام!!.

فإذا علمت هذا فتذكر قوله ﷺ: «**فإذا كان صوم يوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق**».

والرفث في أصله هو الحديث عن الجماع ومعانيه؛ لأن من أركان الصيام ترك الجماع وترك إتيان النساء، وترك المرء شهوته لله عز وجل؛ فيلحق بهذا المعنى الحديث في هذا المتروك الذي نهى الشارع عنه في الصيام. والشارع –كما يقول علماؤنا– الشارع الحكيم حين ينهى عن شيء ينهى عما يوصل إليه، وينهى عما يكون قريبًا منه ومن معناه؛ فالحديث عن الجماع يهيج الشهوة، والحديث عن الجماع هو ملتحق وقريب من الجماع، فلذلك على المرء أن يترك الحديث عنه.

«**لا يرفث ولا يفسق**» والفسق هو الخروج عن الطاعة؛ ويدخل في الفسوق كل عمل نهى عنه الشارع، هو من الفسوق وهو من المنكر.

على المرء في هذا الشهر الكريم أن يتدرب وأن يتمرن على ترك المعاصي التي يقع فيها في غير رمضان، استقباحًا لها، وتمهيدًا للقلب بأن يهجرها.

وليس هناك وسيلة من أجل ترك ما أدمن المرء عليه من المعاصي أعظم من الحَجر، ليس هناك أعظم من الحَجْر؛ الجَلّالة حين تأكل القاذورات، فإن طريقة تطييب لحمها أن تحجر عن القاذورات. المدمن حين يدمن على المخدرات، الطريقة لإبعاده عن المخدرات هي الحجر، أن يبتعد عنها حتى ينقى دمه. وكذلك المعاصي؛ هذه

المعاصي العملية والعلمية، هذه أشد من هذه القاذورات التي يصيبها الناس في مأكلهم ومشربهم، أو تصيبها الدواب في مأكلها ومشربها. ولذلك الطريقة للخروج منها هو هجرها.

هنا أنبه الذين يشربون الدخان، الذين يتعاطون المخدرات.. هذا الشهر هو أعظم فرصة لهم من أجل أن يجتنبوا هذه المحظورات؛ الذي لا يملك عينه وقلبه عن النظر إلى المحرمات، إلى النساء، والنظر إلى المرأة سهم من سهام إبليس، يُذهب الكثير من أنوار القلب وأنوار العلم وأنوار القرآن.

فعلى المرء أن يتعلم في هذا الشهر –وهذا شهر تذهب قوة المرء... ويدخل في هذا الباب قوله ﷺ: «**والصوم جُنَّة**»، ما معنى جُنَّة؟ يعني حِفاظة، جُنَّة يعني ترس.. لماذا؟ لأن النبي ﷺ يقول: «**من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فمن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء**» حصن.. حين يصوم المرء تذهب قوته، ويذهب الكثير من شهوته، لأن الطعام يغذي البدن فيهيج النفس للشهوات، فإذا ضعف البدن وانشغل بألمه في نفسه ذهب الكثير من المعاني التي تدفعه إلى الشهوة؛ ولذلك قال ﷺ: «**فمن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء**».

البعض يقول –هنا أذكر فائدة– البعض يقول: بأنه يصوم، ومع ذلك شهوته ما زالت قوية!! هذا لأنه لم يفهم قوله ﷺ: «**فعليه بالصوم**»، ليس المقصود أن يصوم يومًا أو يومين، لا، عليه أن يسرد الصوم حتى يذهب عنه ما يجده في نفسه. «**فعليه بالصوم**» أي: إذا صام يومين فذهبت شهوته هذا جيد، فهذا يكون لضعاف الأبدان؛ أما الشاب القوي، لابد أن يسرد الصوم أيامًا وشهورًا من أجل أن تذهب شهوته. «**فعليه بالصوم**» المرء إذا كان مريضًا، ليس بحبة واحدة يأخذها فتنقضي أمراضه، إنما يأخذ الحبات متتابعة حتى يذهب.. وكذلك الصوم؛ هو حبة التقوى، يأخذها المرء ويمارسها حتى تذهب عنه شهوته.

ولذلك يجب على المرء في هذا الصوم أن يترك المعاصي.. هناك معاصٍ كثيرة يقترفها الناس:

من ذلك الغيبة؛ هذه الجريمة الكبيرة التي تُذهب الحسنات، والله عز وجل قال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾؛ فلذلك هذه فرصة، فرصة لك أن تتذكر بأنك بين يدي الله وأنك مع هذه الطاعة، فإياك أن تقترف ما يسيء لهذا القرب من الله عز وجل. هذا شهرٌ تتنزل فيه الرحمات، فلا تقطع هذه الرحمات بهذه المعاصي.

ومن ذلك –المعاصي– قطيعة الرحم في هذا الشهر؛ الناس عليهم أن يعاودوا أرحامهم، عليهم –وخاصة من كان له رحم غير رحم الدم والنسب والصهر– عليه أن يتذكر رحمه من إخوانه.. ولذلك هذه فرصة لأن يجلوَ قلبه من بغض المسلمين، أن يجلوَ قلبه من كراهية المسلمين، هذا وقت التصافي والمحبة؛ وعليه أن يبتعد عن الحسد والحقد، هذا الحسد والحقد الحالقة، التي تحلق الدين ولا تحلق الشعر.

ولذلك من مهمات هذا الشهر قوله ﷺ: «**وإن سابَّه أحد أو قاتله أحد، فليقل: إني صائم**»؛ وهذا عند بعض أهل العلم خاص برمضان، وعند كثير من أهل العلم عام في كل صوم، وهذا هو الصواب؛ الصواب - «**وإذا كان صوم يوم أحدكم**» - لا يختص برمضان، رمضان وغير رمضان. والذين قالوا: خاص برمضان، إنما خافوا الرياء؛ هذا الحديث يدعوك لهذا الأمر، فلا تلتفت إلى خوف ذهاب العمل بالرياء.

«**فليقل: إني صائم**» بعض أهل العلم قال: لا يقوله في غير رمضان ويكتفي بالإعراض -واستحبه كثير من أهل العلم- مخافة الرياء؛ ولكن هذا حديث عام، ينبغي إعماله وعدم تخصيصه إلا بمخصص، وهنا لا مخصص.

«**إذا كان صوم يوم أحدكم وسابه أحد أو شاتمه فليقل: إني صائم**»، وذلك لما في هذه الكلمات من ردع على معان متعددة:

ردع للنفس أن لا تجيب؛ لما تقول: إني صائم تذكر نفسك، وتملك نفسك.. رجل يقول: إني صائم، يملك نفسه، لأن الغضب يُذهب هذه القوة في ملكة النفس، في أن يملك المرء نفسه من الغضب، يذكر نفسه أن لا ينساق وراء غضبه إذا كان قد غضب.

ويذكر غيره أن يستحي؛ لأنك حين تقول -إذا سابه أحد-: إني صائم.. الناس بسبب إيمانهم والمسلم -نتحدث هنا عن مجتمع مسلم- حين يراك صائمًا يزداد احترامًا لك؛ فإذا كان قد ظن بك الشرور -سابه، اتهمه بما ليس فيه، شتمه، قال عنه كلمة قبيحة- فحين يعلم أنك صائم، يذهب الكثير من البغض لك وتذهب الكثير من الظنون عنك، بسبب قولك هذه الكلمة؛ هذه كلمة حِفاظة.

وكذلك قول العبد: إني صائم، من أجل أن تبين أن الأساس بين المسلمين هو الرحمة، لأن رمضان هو شهر الرحمة، والمرء لا يقوم به إلا وقد ملك نفسه بترك هواه؛ يعني: الذي يصوم -عادة- ويحافظ على الصيام لا تجده سارقًا، لا تجده مغتابًا، لا تجده لصًا -كيف يصوم وهو لص؟!! -، وكذلك إذا صام لا يغتاب المسلمين.

فهذا إشاعة للخير، قول العبد: إني صائم هذا إشاعة للخير.

فالمطلوب في هذا الشهر الكريم هو ترك المعاصي، واستغلال العبد لهذا الشهر بما فيه من معانٍ..

«**إذا جاء رمضان صفدت الشياطين**» فلذلك ترى الناس في هذا الشهر يقبلون على العبادة؛ بعض المسلمين يقول: صفدت الشياطين، ولكن نرى المعاصي مما ينشأ من الشيطان!! وذلك لأنهم يظنون أن أعمال المعاصي لا تنشأ إلا من الشيطان، لا، تنشأ من حديث النفس والهوى ودواعي الآخرين من شياطين الإنس ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وهناك قول بأن الذي يصفد هم الشياطين ومردة الجن.. وشيخ الإسلام قال: تصفد بمعنى فيها حركة، ولم يقل تحبس -لو حبست وأغلق عليها لا يكون لها تأثير، ولكن قال: صفدت، فالمرء إذا حبس في سلاسل يتحرك قليلًا- فهذا شيء من حركة الشياطين؛ ولذلك يقل شأن الشياطين..

فهذا شهر استغلّ هذه المعاني فيه.. والله عز وجل يوفقنا وإياكم.

والحمد لله رب العالمين.

الحلقة الرابعة:

فضل الجهاد والصبر في رمضان

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه:

هذا الشهر من شهور الطاعات العظيمة، ورأينا في سيرة النبي ﷺ أن أعظم ما قام به في هذا الشهر من غير العبادات -من قيام الليل، من الرحمة على المسلمين، من قراءة القرآن، من الاعتكاف- رأينا أن هذا الشهر كذلك هو شهر الجهاد؛ فلأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم تعلمًا من رسول الله ﷺ.. وهو استغلال الأوقات التي تحصل بها الرحمات لتحصيل المنافع الدينية؛ ومن ذلك ما كان ينصح به الفاروق الصحابة إذا غزوا أن يقيموا المعارك وقت صلاة الجمعة، لأنه تتنزل بها -كما يقول- الملائكة، وتهب الأرواح -أي الرياح الطيبة-، لأن النبي ﷺ نصره الله عز وجل -في غزوة الأحزاب- بالصبا، بريح الصبا؛ هذه هبت -أُستئذِنت الدبور فلم تقم، فقامت الصبا- فكانت ناصرة لنبينا ﷺ. تهب الأرواح ناصرة للنبي ﷺ؛ فلذلك كانوا يستغلون مثل هذه الظروف لإقامة طاعة الله، وتحصيل المنافع الدينية لهم، التي يحصل بها الفضل الإلهي في هذه الدنيا. فكان الفاروق ﷺ يأمرهم بأن يقيموا المعارك وقت صلاة الجمعة، لأنها أوقات تتنزل بها الملائكة، وتهب فيها الأرواح، ويحصل الدعاء من قبل المصلين في المساجد لهذه الجموع المؤمنة.

ولذلك وقعت المعارك العظيمة في هذا الشهر العظيم؛ لماذا؟؟ هذا استغلال لفضل الله بما تنزل به الملائكة في هذا الشهر؛ يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ۝ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ۝ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ الروح هو جبريل عليه السلام، وذكر هنا تخصيصاً لفضله وكرامته، فهو أعظم الملائكة عند الله عز وجل -ولذلك يكرهه المشركون واليهود لأنه ينزل بالعذاب عليهم- وهو أمين وحي السماء، لم ينزل كتاب إلى الأرض على نبي من الأنبياء إلا وكان أمين هذا الوحي هو جبريل عليه السلام.

إذاً أيها الأخوة الأحبة: أعظم ما يمكن للمرء أن يقوم به في هذا الأعمال، أو أن يقيمه الله عز وجل فيه، هو أن يقيمه سبباً لنصرة الدين؛ ولذلك في الحديث: «**من صام يومًا في سبيل الله باعد الله بينه وبين النار -أو: باعد بين وجهه وبين النار- خمسمائة سنة**»، خمسمائة عام يباعده الله بهذا اليوم؛ فهذا يوم فيه البركات، ويوم فيه الخيرات، وعلى الناس أن يستغلوا -وخاصة من أقامهم الله عز وجل مقام الرباط ومقام الجهاد، هؤلاء حقهم على أنفسهم أن يستغلوا هذا الشهر وهم في رباط، أن يستغلوه بالصيام ليحصل لهم الفضل.. وكذلك حقهم على المسلمين بأن يقوموا بالدعاء لهم، والاستغاثة بالله عز وجل لهم؛ نحن نرى -بفضل الله عز وجل- في كل عام إقبالًا أكثر من غيره على العبادات والطاعات، المساجد مليئة والعبادات كثيرة، وترى الناس كذلك يقبلون على القيام

ويقبلون على الطاعة؛ فهذا وقت يرد فيه على هؤلاء بأن يكثر الدعاء للمجاهدين في سبيل الله، ولأهل البلاء، ولأهل الطاعات الذين ينصرون دين سبحانه وتعالى، وللعلماء؛ هذا وقت ينبغي على الناس أن يستغلوا فيه المقامات، ومن ذلك أن يكثر المجاهد جهاده، هذا وقت تستغل فيه نزول الملائكة..

على المجاهدين أن يستغلوا هذا الشهر الكريم بالأعمال الجهادية، وأن يستغلوه بأعمال الرباط، وأن يستغلوه بأعمال في سبيل الله..

والمقصود هنا بـ "في سبيل الله" كما يقول ابن رشد رحمه الله، يقول: أجمع أهل العلم على أن كلمة "في سبيل الله" في القرآن والسنة إذا أطلقت لم يقصد بها إلا القتال. وذاك ردًا على من يزعم أن كلمة "في سبيل الله" يدخل فيها كل طاعة، ولا شك أن كلمة "في سبيل الله" بالمعنى اللغوي العام تعني أن كل عمل طاعة فهو في سبيل الله، أي من أجل إرضاء الله ومن أجل تحصيل رضاه وامتثال شرعه أو الانتهاء عما نهى؛ ولكن إذا أطلقت كلمة "في سبيل الله" -كما في مصارف الزكاة- فالمقصود بها القتال. وأما ما ورد في القرآن من الجهاد على غير هذا المعنى فهو مقيد، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا۝٥٢﴾ هذا جهاد مقيد بقوله ﴿بِهِۦ﴾، ولو أطلق ﴿وَجَٰهِدۡهُم﴾ من غير تقييد لما انصرف إلا إلى القتال؛ فكل كلمة "في سبيل الله" لا يقصد بها إلا القتال في سبيل الله، إلا ما جاء مفسرًا في النص النبوي، كقوله ﷺ: «**والحج في سبيل الله**»، وأخذ الإمام أحمد بهذا الحديث في أنه يجوز أن يكون من مصارف الزكاة في الحج، أدخل الحج فقط لهذا الحديث لأنه اختص به.

القصد من هذا أيها الإخوة الأحبة: إننا في هذا الشهر يجب أن ندعو كثيرًا لأهل البلاء..

أولًا: للمجاهدين في سبيل الله؛ وبفضل الله قد فتح الله الساحات الجهادية والأسواق الإيمانية، فعلى الناس أن يدعو الله عز وجل لهؤلاء الرجال، وهؤلاء هم الأمل لإسقاط هؤلاء الطواغيت والرد على أعداء الأمة، وهؤلاء قد نفروا وقاموا بالواجب؛ والآن الواجب عيني وليس كفائي.. ولكن هؤلاء -في الحقيقة- قد رحم الله عز وجل بهم الأمة الإسلامية بأنهم يدافعون عن بيضة الدين ويدافعون عن الدين..

أنتم ترون البلاد التي خلا منها الجهاد، قد صال فيها المجرمون والشياطين، قد صالوا فيها وأفسدوا فيها؛ والمشايخ أكثرهم في سكوت، ومن كان منهم من أهل الصلاح فهو في السجون.

وهذا يؤدي بنا إلى الحديث عن أهل بلاء من نوع آخر، وهم أهل الصبر، وأهل الصبر هاهنا أقصد بهم المساجين..

فعلينا في هذا الشهر الكريم أن نتذكر هؤلاء الذين قبعوا خلف الأسوار، ولم يعد يذكرهم إلا القليل، يُعذبون هاهنا وهاهنا ولا نسمع إلا الأنين القليل مما يصلنا؛ ولا يعرف أحوالهم حق المعرفة إلا أهليهم، فهم الذين يعيشون البلاء.

فعلى كل مسلم أن يتذكر في هذه الأيام المباركة وهو يأكل مع أهله، وهو منعم في بيته؛ أن يتذكر المجاهدين من أهل البلاء، وأن يتذكر المبتلين –المساجين من المسلمين– من أهل الصبر.

السجون مليئة الآن.. أهل المخدرات واللصوص وأصحاب الأموال والترف يعيشون ويتنعمون، ويعيثون في الأرض فسادًا، ويحمون بالسلاح والقوة والشرطة؛ وأما أهل الدين فهم أهل السجون الآن، هذا هو قدر العلماء، وهذه مقدمات بإذن الله عز وجل لزوال هؤلاء الأعداء..

نرى في فلسطين آلاف المساجين عند دولة يهود وعند أمثالهم. نرى كذلك في كل بلاد المسلمين نرى علماء قد سجنوا وليس لهم جريرة إلا أنهم قالوا كلمة الحق، أو قد صارت كلمة الحق ملصقة بهم برحمة من الله عليهم، أو أن الطواغيت يخافون منهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ فهؤلاء بمجرد وجودهم ينالون من الأعداء، يبغضهم الأعداء، فهؤلاء لبغض الأعداء لهم يسجنون..

علينا أن نتذكرهم بالدعاء، وندعو لهم كما ندعو لآبائنا وأمهاتنا وأزواجنا وأولادنا، لأن هؤلاء يقومون بأعظم ما يقوم به المسلم في هذه الأوقات وهو الحفاظ على دين الله، وجودهم في هذه الحياة نعمة عظيمة من الله سبحانه وتعالى لحِفاظة الدين، هؤلاء هم الذين يردون سمعة الباطل عن أهل الدين؛ أنتم ترون الآن أن سمعة الدين –للأسف– صارت في الحضيض، وانتشر الإلحاد، ومن أسباب انتشار الإلحاد وجود المشايخ الضالين، ووجود المشايخ الزنادقة، ووجود علماء السلاطين الذين يبيعون دينهم من أجل الدنيا؛ فوجود هؤلاء العلماء يرد التهمة عن أهل الدين، بأن أهل الدين فيهم الصادق، وفيهم المجاهد، وفيهم المبتلى، وفيهم من يصدع بكلمة الحق.

علينا أن نتذكر هؤلاء، علينا أن نتذكر المساجين هنا وهنا في كل بلاد المسلمين، أن ندعو لهم، وزيادة على ذلك –لمن يستطيع– أن يقوم برعاية أهلهم وزيارتهم، وعدم تركهم يحتاجون.. الطواغيت يريدون إسقاط القيم من بيوت المجاهدين والصابرين، يريدون إسقاط قيمهم عن طريق الجوع والفقر؛ والفقر يقتل المكرمات كما يقول سلفنا. فإياكم أن تجعلوهم فقراء يتكففون الناس، وتسقط قيمهم العظيمة ومقاماتهم العظيمة في أنهم أهل الدين، إياكم أن تتركوهم يتركون هذه المقامات بسبب حاجتهم، إياكم ثم إياكم.. فوالله إن هذا من سبب غضب الله عز وجل على أُناس، وهو سبب رفعة الله عز وجل لأناس يقومون بهذا الواجب.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

.

الحلقة الخامسة:

مقدمة في مقاصد السور (١)

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين؛ جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم، آمين آمين..

أيها الإخوة الأحبة:

لما كان شهر رمضان هو شهر القرآن، فأعظم ما يُتدارس فيه هو القرآن؛ إذ يحصل بهذه المدارسة قراءة القرآن التي فيها الأجر العظيم، وكذلك يحصل فيها تدبر المعاني الذي يحصل به زيادة الإيمان، فزيادة العلم تؤدي إلى زيادة الإيمان ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾، ارتباط العلم الشرعي والعلم الذي جاء به القرآن مع القرآن هو ارتباط عضوي..

والناس ربما يتساءلون: لماذا يَضِلُّ هذا العَالِم؟ ولماذا يفسد هذا العالِم؟. هذه النماذج من أهل العلم التي تسقط، هؤلاء ليس وردهم هو القرآن، وليست علومهم مشتقة من القرآن؛ تجدونهم يأخذون أقوال العلماء من الكتب، ويجمعونها من أجل أن يخرجوا منها بالشهوات، ويخرجوا منها بالرخص التي تؤدي بهم إلى التحلل من طاعة الله عز وجل؛ ولو كانت علومهم مشتقة من القرآن، مأخوذة منه –أي: يتدارسون علومهم من القرآن، يتدارس الواحد منهم بينه وبين نفسه، وكذلك يتدارس مع إخوانه– لارتقى إيمانهم وخوفهم من الله عز وجل. فالعالم هو الذي يخشى الله سبحانه وتعالى، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾؛ العلماء هم الذين يخشون الله، وسبب خشيتهم أن علمهم مستمد من الحقيقة، مستمد من أجل أن يعلموا ماذا يريد الله عز وجل منهم، ولذلك يذهبون ذهابًا أوليًا إلى كتاب ربنا سبحانه وتعالى.

وهذه ميزة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أنهم أخذوا علومهم من القرآن، وأخذوا –في مرتبة ثانية– من النبي ﷺ، ولذلك كان حرصهم على القرآن شديدًا؛ وكان الصحابة يوصي بعضهم بعضًا أن لا يصير إلى أي مصدر من مصادر العلوم الأخرى حتى مع جلالتها وعظمتها كعلوم السنة، إلا بعد أن يفرغ المرء من علوم القرآن؛ أو أن يذهب في مسألة من المسائل يرجوها، أن يذهب أولًا إلى القرآن الكريم.

مع هذا القرآن، ومع هذا الشهر الكريم، نتعلم –مذاكرةً فيما بيننا– ما يسمى بمفاتيح السور؛ وذلك بالنظر إلى مقاصد السور الكلية، فإن معرفة المقاصد الكلية للسورة علم، هو مفتاح طلبك العلم في المسألة.

القرآن تنظر إليه في الآية الواحدة على مستويات متعددة:

المستوى الأول: وهو أن تنظر ماذا تفيد الآية بذاتها.. وربما يسبق النظر في الآية بذاتها النظر إلى مفردات هذه الآية، فإن هذه المفردات يجب العلم بها، والكثير من مفردات اللغة ذهبت من أذهان الناس وذهبت من علومهم ومن مذاكراتهم؛ فلذلك: الباب الأول الذي تسعى إليه -من أجل الدخول إلى تعلم القرآن- هو معرفة مفردات هذه الآية، ماذا يقصد ربنا سبحانه وتعالى بهذه الكلمة؟ وهذه الكلمة لما كان القرآن قد نزل بلغة العرب، فإن هذه الكلمة عربية، يُعرف معناها من تواضع العرب على معنى هذه الكلمة؛ ولذلك يذهب المفسرون -كما كان شأن كبار المفسرين، كحبر القرآن ابن عباس- إلى أشعار العرب لمعرفة معنى هذه الكلمات.. وبعد ذلك ينظر إلى الآية: ماذا تفيد هذه الآية؟. نحن نجد أنه لو استقلت آية بالذكر لدلت على معنىً تام، معنىً كامل، وهذا من إعجاز القرآن؛ ربما الكلام الذي يتكلمه المرء لا تقوم معرفته معرفة تامة إلا بمعرفة جملته عامة، ولكن لو ذهبت إلى القرآن -حتى مع الآيات القصيرة، كما سنرى في جزء عم- تجد أن الآية الواحدة تدل على معنىً تام فيه الغذاء الكامل.

ولكن يجب أن ترتقي في هذه المعرفة بعد معرفة هذه الآية وما تدل عليه؛ وهو معرفة هذه الآية ما قبلها وما بعدها، وهو الذي يسمى بالسباق والسياق؛ أن تذهب إليها معرفةً بها ومعرفةً ما قبلها، لترى هذا الترابط..

هذا القرآن محكم، ومعنى الإحكام أولًا هو أنه مترابط في معناه ومترابط في ترتيبه للمعاني؛ يرتب المعاني ترتيبًا محكمًا، على شكل البناء الذي لا يقوم فرده بنفسه فقط أنه قوي، ولكن كذلك يقوم بمعانٍ أخرى حين ترابطه مع الآيات الأخرى أو اللبنات الأخرى.

فلذلك عليك أن تعرف: ما هذه الآية؟ ما هو سياق الكلام فيها؟ ما هو السباق الذي تقدم ذكره؟.

وكذلك تذهب إلى مستوى آخر بعد أن تربط هذه الآية بما قبلها وما بعدها؛ وهو أن تربطها بسياقها من جملة السورة.

فقد يكون الحديث هنا عن نعمة الله، ليس فقط في الآية المتقدمة ولكن في آيات متقدمة، وليس فقط في آيةٍ تالية في السياق ولكن في آيات تالية..

تنظر إليها ضمن موضوعها الذي تتحدث عنه..

قد يكون الحديث عن نبي من الأنبياء في جزء من هذه السورة، فلذلك تذهب إلى هذا الجزء لترى موطن هذه الآية من هذه الجملة التامة.

ثم بعد ذلك عليك أن تضع هذا الجملة العامة الدالة على الموضوع، أن تضعها ضمن سياق السورة بأكملها، ماذا يراد بهذه السورة؟ وهذا علم جليل.

إذًا: أنت تنظر إلى مستويات متعددة بالنسبة إلى قراءتك للقرآن؛ ويمكن أن تذهب ابتداءً إلى مفاتيح السورة، وذلك بالنظر إلى مقاصدها الكلية.

ومن الأمور التي ينبغي أن تهتم لها هو وجه السورة، الذي سماه "سيد" بشخصية السورة، السورة لها شخصية.. نحن نجد أن ثمة كلمات –مثلًا– تتردد في سورة ما، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ۝١٢٩﴾، تجد ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝١٣﴾، تجد صفة العذاب المهين في سورة "النساء"، تجدد تكرر نعمة الله في سورة "النحل" –وكما يقول ابن القيم: هذه سورة فيها أصول النعم الربانية على الخلق– وهي دالة على النعم، فيها النعم الكثيرة، وكذلك تكرر كلمة الولاية في سورة "الشورى"، وهكذا.. تكرر كلمات في السورة لتدل على شخصيتها، وتدل على الحديث عن ماذا يدور.

وهذه كلها مداخل –أيها الأخ الحبيب– من أجل أن تدخل إلى المقاصد الكلية للسورة.

النظر إلى المقاصد الكلية يريح من عدة جهات: يعرفك موطن هذه الآية من القضية الكلية في السورة..

وأنا لما شرحت وفسرت سورة "العنكبوت" –وأضرب هذا للتمثيل– لما اختلف العلماء في وقت نزولها: هل نزلت مكية أو مدنية؟ ولم يأتِ هناك نص قاطع فيها؛ هناك من يقول أنها مدنية لأسباب –مثلًا فيها ذكر المنافقين– وهناك من يقول أنها مكية، لأنها حديث عن قضية الهجرة، وحديث عن قضية الابتلاء الذي يعيشه المسلمون في مكة أكثر وأوضح؛ فاختلف العلماء. فذهبت إلى السورة بنفسها، من أجل أن أقرأ موضوعها، لأعلم من خلال الموضوع العام الموطن الذي يتلاءم مع الحدث التاريخي –أهو مكي أم مدني؟ –؛ وخرجت بنتيجة أرجو أن أكون قد وُفقت إليها، وهي أنها نزلت في المدينة لتعالج مواضيع المسلمين في مكة، وهي تتعلق بقضية الهجرة..

حين فهمت هذا، حاولت أن أفهم: لماذا ذُكر نوح عليه السلام فيها؟ ولماذا ذُكرت مدة بقائه في قومه ﴿أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ فقط في هذه السورة؟ ولماذا ذُكر إبراهيم عليه السلام في قضية الطعام والشراب؟ أنه ذكر هذه القضية وهي قضية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ فلماذا يتحدث هذا؟ لم يتحدث ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾؟؟ رأيت أن هذه الآيات الدالة على معانٍ في ذاتها وهي دالة على معانٍ متعددة، رأيتها تدل على معنىً واحد يجمع هذا التعدد في هذه الآيات التي تحتويها هذه السورة.

عندما يتحدث القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ۝٧ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾، لماذا ذكرت قضية الوصاية بالوالدين، ولكن بأن لا يتابعه على كفره؟ ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ۝٩﴾ لماذا هنا؟ لماذا ذكرت

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؟ يمكن لخطيب أو مدرس أو عالم أن يفهم ما تدل عليه هذه الآية فقط، ولكن لماذا جاءت في هذا السياق؟ فهمتُ أنها تتحدث عن اجتماع جديد وعن دخول بيئة جديدة يحصل فيها الترابط والنصرة، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. لماذا ذكر فيها ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾؟؟

إذًا: النظر إلى المقصد الكلي في السورة يعينك على فهم سبب ذكر هذا المراد من المعنى العظيم المستقل بذاته؛ لماذا هو في هذه السورة دون غيرها؟ لماذا ذكرت مدة بقاء نوح في قومه في هذه السورة دون غيرها؟ لو نظرت إليها.. لها تعلق بالهجرة؛ وهذا مشروح إن شاء الله تعالى في "تفسير سورة العنكبوت".

القصد: إن البحث عن المقاصد أو المقصد الكلي للسورة يفتح لك آفاقًا من العلم، وآفاقًا من النور الإلهي، وآفاقًا من التفكر. بعد ذلك، هذا التفكر وهذا العقل يعينك على الحفظ؛ ولذلك من عجائب ما قالوا: "علل لتحفظ". الناس يقولون: ربما "علل لتفهم"!! وإنما هذه كلمة منسوبة لسيبويه، قال: علل لتحفظ؛ فهذه دالة أنك إذا عللت سبب الورود حفظت.

أنا أضرب لكم مثالًا في القرآن يشرح هذا المعنى الذي أتكلم عنه:

الله عز وجل يقول: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾. هب أنك تريد أن تعرف لماذا لم يذكر هنا ما ذكر في سورة "المعارج"؟ هب أنك لا تعرف هذا.. يعني الله عز وجل قال: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦﴾، إذاً هي حديث عن درجة الإحسان، ودرجة الإحسان تقدم أول وصف لها ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾، هذا ليس من الحديث عن القيام بالفرائض، هذا حديث زائد عن القيام بالفرائض، لأنه حديث عن المحسنين؛ فما هو شأنهم؟؟ هل هم الذين يقومون بالصلاة التي فرضت عليهم فقط؟ هل هم الذين يقومون بالزكاة التي فرضت عليهم فقط؟ أم أن مقامهم هؤلاء فيما سماهم القرآن وسموا به أنهم يقومون بأعمال فوق الفرائض؟.

﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾ هل تستطيع أن تقول "معلوم"؟؟ لأنه لو ذكرت كلمة "معلوم" لدل هذا على الفريضة الواجبة، والمقام ليس حديثًا عن الذين يقومون بالواجبات فقط، وإنما هو حديث عن الذين يزيدون، كما ذكر في أمر الصلاة ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ..﴾ يصلون النوافل؛ وأعظم النوافل وأبرك النوافل وأكرم النوافل هو قيام الليل.

وهذا أنت لفهمك لو مرت بك واضطرب عليك حفظك -هب أنه اضطرب عليك حفظك لسبب ما- فتعلم أن كلمة "معلوم" هنا ليست موجودة، لأن الحديث هنا عن الإنفاق غير المعلوم؛ المعلوم هو الزكاة الواجبة، وغير المعلوم هو الذي فيه الإنفاق الزائد ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ﴾، ولذلك قال القرآن: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ۝١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ۝١٩﴾، ولم يذكر كلمة "معلوم" بخلاف الآية الأخرى ﴿حَقّٞ مَّعۡلُومٞ۝٢٤﴾، لأنها حديث هناك عن الناس الذين يقومون بالواجبات لتخرجهم من الضلال، ولتخرجهم من الفساد، ولتخرجهم من الناس المحرومين.

فإذًا: أنت لما عللت حفظت.

فإذًا أيها الأخ الحبيب: أفضل ما نتدارسه في هذا الشهر الكريم، هو أن نتدارس السور التي يمكن لطالب العلم أن يدخل فيها ابتداءً، ليتدرب بعد ذلك على السور الطويلة.

يعني: المرء للبحث عن المقصد الكلي... العلماء تكلموا عن المقصد الكلي في سورة البقرة، وأجل ما قيل فيها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾؛ هذا أول أمر في سورة البقرة، هو حديث عن عبادة الله عز وجل ومواقف الناس منها وما فيها من أحكام. سورة البقرة تتحدث عن عبادة الله، وأول أمر فيها وأول أمر قرآني ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ۝٢١﴾..

لكن هذا يحتاج إلى تمرين، وأعظم ما يتمرن به المرء هو السور القصار؛ وتعلمون أن جزء عم حاوٍ لمقاصد القرآن الكلية، وجزء عم في أغلبه قرآن مكي، قال بعضهم: جزء عم كله مكي، إلا سورة البينة والنصر. وهناك خلاف في سور أخرى، مثلًا الخلاف في المعوذتين موجود، وكذلك هناك خلاف في سور أخرى نُعرض عنه لأن الأمر أوسع مما نتحدث فيه.

إذًا الحديث عن هذا الجزء: هذا الجزء هو جزء قرآني عظيم يحوي مقاصد القرآن؛ ما هي مقاصد القرآن؟؟ بالاستقراء، مقاصد القرآن هي:

أولًا: الحديث عن الله "الألوهية"، الحديث عن أفعاله، الحديث عن قدرته، الحديث عن علمه، الحديث عن وجوب طاعته وتوحيده وتأليهه؛ هذا هو المقصد الأولي للقرآن الكريم. ما أنزل القرآن إلا من أجل أن نعبد الله، ما أنزل القرآن إلا من أجل أن نعلم من هو الله، ما أنزل القرآن إلا من أجل أن يتحدث الله سبحانه وتعالى عن نفسه؛ القرآن هذا مقصده، وأي تجاوز لهذه القضية يجعل القرآن على معنى ما يقوله بعض المجرمين عندما "أنسنوا" النبوة!! بمعنى: جعلوها عملًا إنسانيًا يتعلق بما هو من شأن الحياة الدنيوية وما هو من رغبة الناس وصلاح أحوالهم.. والقرآن نزل من أجل إصلاح أحوال الناس، ولكن أعظم الإصلاح هو أن يوحدوا الله سبحانه وتعالى؛ وكل إصلاح يؤخذ من القرآن من غير النظر إلى إصلاح علاقة العبد مع الله وتعبد العبد لربه، هذا كفرع مقطوع

من الأصل، جاف الروح، جاف الماء، جاف العطاء، لا يمكن أن يستقر به المقام على هذا الفرع الذي أتاه؛ بل سيأتي عنده يوم -كما نرى- يتخلى فيه عن هذا الفرع، لأنه لا يسنده إلى عبوديته لله عز وجل..

والأمر قيمته بالنظر إلى مصدره لا إلى ذاته فقط؛ الناس حين يسألون: كيف يُلزم الناس بالأخلاق؟ كيف يُلزم الناس بالقيم؟ الأمر الذي يُلزم الناس بالقيم والأخلاق والأعمال هو النظر إلى مصدرها، من الذي أمر؟ من الذي شرع؟ من الذي قال؟. فحين يعلم العبد مقامه في الوجود وأنه عبد لله وأن الذي أمر هو الله، هذا الفرع يزداد قوة ويزيد كذلك الأصل قوة، يعود كل واحد على الآخر بالفائدة والعطاء.

فقط قبل أن أنتهي من هذا اللقاء: هناك طريقة مهمة جدًا من أجل تعلم قراءة مفاتيح السورة الواحدة؛ نحن نبدأ بجزء عم لأنه به يرتقي المرء، والمرتبة الأولى التي بها يرتقي المرء في قراءة المقاصد؛ وكذلك لابد أن نتعلم كيفية قراءة هذه المقاصد.

قلنا: المقاصد القرآنية:

أولًا: هو تأليه الله عز وجل. ثانيًا: الحديث عن النبوة والرسالة والشرع وما يتعلق بها. والأمر الثالث وهو الحديث عن الآخرة والغيب؛ هذه هي مقاصد القرآن الكلية، وهي كذلك التي تعبر عن هوية هذا الكتاب العظيم.. أعظم ما فيه هو الحديث عن الله.. وذاك حديث أُبي لما سأله النبي ﷺ: «**أي آية في كتاب الله أعظم؟**» فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. فهم أُبي أن أعظم الآيات هي التي تتحدث عن الله؛ وهذه آية تتحدث عن الله أكثر من أي آية أخرى بصفات الله عز وجل، ذكر ابن كثير أن فيها عشر مهمات تتحدث عن الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك قال أبي رضي الله تعالى عنه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فقال له ﷺ: «**ليهنك العلم يا أبا المنذر**»..

فأول أمر يجب أن نفهمه أن القرآن يتحدث عن الله، ثانيًا يتحدث عن النبوة وما يتعلق بها من شرائع وغيرها، والأمر الثالث هو حديث عن اليوم الآخر.

في كيفية معرفة الكليات، معرفة المقصد الكلي للسورة؛ إن شاء الله نتابع في لقاء آخر..

جزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

الحلقة السادسة:

مقدمة في مقاصد السور (٢)

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه:

تكلمت في اللقاء السابق عن أهمية مفاتيح السور، وأن المقصد الكلي يعينك كثيرًا في فهم المقصد الجزئي للآية، وكذلك القراءة للآية الواحدة ضمن السياق الكلي يفتح لك من العلوم الإيمانية التي تنفعك، وتستطيع بها أن تدرك -كذلك- أقدار الوجود، وتستطيع بها أن تدرك كيفية كلام ربنا سبحانه وتعالى عن القضايا المتعددة، التي يتكلم فيها بالحق جل في علاه.

هناك مهمات ضرورية جدًا لمعرفة مفاتيح السور، هناك مهمات؛ تكلمنا في اللقاء الفائت عن مقاصد القرآن الكلية، وأعيدها بسرعة: المقصد الأول هو الحديث عن ألوهية ربنا. ثانيًا: الحديث عن النبوة. وثالثًا: الحديث عن اليوم الآخر. هذا هو مقصد القرآن في هذا العطاء الإلهي الذي يوجد في الكتاب.

للحديث عن كل قضية، هذه تحتاج إلى قراءة مستوعبة للقرآن.. لماذا؟ ما هي أهمية الحديث عن الألوهية؟ لأنها تعرفك بمقامك مع الله، تعرفك بربك، تعرفك كيف تعبده، تعرفك بما يحب وما يكره.. والحديث عن اليوم الآخر، هو الأمر المهم الذي يسعى إليه الناس، من أجل أن تستقر حياتهم على معنى من النعيم بعيدًا عن العذاب.. والحديث عن النبوة كذلك في هذا الباب شيء معروف.

الآن.. كيفية معرفة مفاتيح السور:

أولًا أيها الأخ الحبيب: هناك طرق متعددة في معرفة مقاصد السور، وفي كيفية معرفة مقصد السورة الكلي؛ يمكن أن تعلم -وهنا سأبين- يمكن أن تعلم مقصد السورة من خلال الطرق التالية:

أولًا: يمكن أن تعلمها من خلال السورة السابقة؛ يمكن أن تعلم مقصد السورة الحالية من خلال خواتيم السورة السابقة.

وهذا إن تفكرت فيه وجدت أن هناك ثمة مناسبة في ترتيب السور؛ مع العلم أن العلماء قد اختلفوا اختلافًا يسيرًا: هل ترتيب السور وقفي أم أنه اجتهادي؟ والصواب: إننا نرى أن هذا القرآن لم يتدخل فيه اجتهاد بشر، ولو دخل فيه اجتهاد بشر ما فإنما هو بهداية الله سبحانه وتعالى وتوفيقه. فالأمر لا يخرج عن هذا المعنى الذي ذكرناه.. وهذا يقوي أن الصحابة ﷺ كانوا يحزبون القرآن، كما في الحديث، إجماعًا منهم، ولا يمكن أن ينشأ الإجماع في زمن الصحابة ﷺ إلا بهدي نبوي يرشدهم إليه؛ والحديث «كيف يحزبون القرآن؟ »، يحزبونه "ثلاثٌ

وخمسٌ، وسبعٌ وتسعٌ و... " وهكذا؛ فدل هذا على أن هذا القرآن رتب بهداية ربانية وبأمر رباني، ولو رتب غير ذلك لاجتهد الناس اجتهادات مختلفة.. يعني: لم تكون سورة الأنفال مع المئين وليست هي منها؟ وهكذا السور..، تجد السورة الطويلة -كما في جزء عم الذي بين أيدينا- تجد أن سورة الفجر تكون بعد سورة الغاشية مع أنها أطول؛ ولو كانت العبرة بالطول -مع أن القرآن قسم على هذا المعنى في بعض أجزائه- لو كان الطول لوضعت سورة الفجر قبل سورة الأعلى، ولوضِعت سورة النساء قبل سورة آل عمران. فدل هذا كله على أن ترتيب القرآن وقفي، وأنه أمر إلهي، ولا يجوز للناس أن يغيروا فيه شيء، وهو إجماع الصحابة ﵃ -وأعيد: لا ينشأ الإجماع من الصحابة رضي الله تعالى عنهم إلا بإرشاد نبوي علمهم إياه-.

فإذًا: ممكن أن تعرف مقاصد السورة التي تريد البحث فيها من خلال خاتمة السورة التي سبقت؛ وسأضرب مثالًا على هذا حتى نمشي في كيفية معرفة مفاتح السور:

سورة يوسف كانت بعد سورة هود، وسورة يوسف ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾. هي حديث عن القصص القرآني، ولكن ما مقصد هذه القصة؟ مقصد هذه القصة مذكورة في السورة التي قبلها في خاتمتها؛ انظر إلى ما يقول الله عز وجل في خاتمة سورة هود -وهي السورة السابقة لسورة يوسف عليه السلام- علمت أن الحديث عن القصص، ما هو مقصد القصص؟ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾. هذه الآية التي سبقت سورة يوسف دالة على مقصد القصة التي في سورة يوسف؛ علمناها من خلال ما سبق، ارتبطت بها وبمعناها.. ما مقصد هذا القصص؟ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.. مقاصد عظيمة ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ﴾، ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾، ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾؛ في آية واحدة أجملت مقاصد السورة التي تليها.

هذه طريقة تحتاج إلى تفكر في السورة التي سبقت والتي تلت، وخاصة في خواتيم السورة التي سبقت؛ هذه طريقة يمكن أن تسلكها وأن تعلمها.

كذلك من الطرق التي تسلكها في معرفة المقاصد الكلية، هو أن تقرأ السورة قراءةً منفردة لكل آية ولكل جملة فيها، لكل جملة معانٍ فيها؛ وترى هذا الترابط بين هذه الجمل المتعددة وهذه الآيات المتعددة. وهذه هي الطريقة التي ينبغي أن تسلكها وهي الطريقة الأهم؛ وهذه تحتاج إلى وقفة من أجل بيان أسلوبها وطريقتها.

كذلك من مهمات معرفة هذه الطريقة، هو أن تعرف مقدمات السورة؛ العرب يقولون بأن مفتتح الكلام هو أهم الكلام، ولذلك مما ذكره سيبويه وذكره كذلك الجرجاني، ذكروا مهمات المقدمات، وأن الذين يكتبون يُفْرغون علومهم وعقولهم وإبداعاتهم في المقدمات؛ وهذا شأن القرآن كذلك..

المقدمة القرآنية للسورة تكون غنيةً غناءً عظيمًا، بها يستفرغ ما بعدها فيها، وبها يُجمل ما بعدها فيها؛ ولكن هذا يحتاج إلى تبصر في نوع الحديث عن هذه المقدمة، وهذا أمر سنراه -مثلًا- في السور المكية، في جزء عم، نراه بينًا..

انظر لما يقول في سورة النور: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ مع ما فيها من التنبيه، ومع ما فيها من العظمة والإجلال للحديث عنها، وما فيها من انفراد ذكر لم يسبق أن تقدمت سورة بمثل هذا الذكر لها ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾؛ كأن هذه السورة فيها بيانٌ مهم لقضية مهمة، يلقي عليها ظلالًا من التنبيه والتنويه والعظمة؛ هذه تنبئك عما فيها.. ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ إذاً هناك فرائض. ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ﴾ إذاً هناك أحكام.. هذه سورة لو أن امرأً يمشي -لم يعرف شيئًا عن سورة النور- فقيل له: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ①﴾، وسئل: ما بعد هذا الكلام؟؟ لعلم أن ما بعد هذا الكلام سيكون أحكامًا وفرائض وشرائع تعلم الناس شأن حياتهم؛ وكذلك ستكون هذه الأحكام مرتبة.. ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ لا نريد أن ندخل الآن في "من أين اشتقت كلمة سورة؟ "، ولكن هذه سورة محكمة فيها ترتيب -فوق أنها آيات بينات- فيها ترتيب لقضية الرقي من خلال الإنسان ومن خلال المجتمع، ومن خلال ذكر موانع المعصية إلى الوعد الإلهي بالتمكين ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

إذًا: هذه المقدمة دلت على المعاني؛ وهذا الأسلوب للوصول إليه وإدراكه ينبغي للمرء أن يكون حاملًا.. وله تجربة في قراءة دلالات الألفاظ الكلية على الجزئية؛ وهذه مرتبة كبيرة جدًا لا يخوض فيها إلا العلماء الكبار رحمهم الله، ولكن ينبغي كذلك أن تمتحن نفسك بها تدربًا للوصول إلى المهمات وإلى الحالة التي يحبها الله عز وجل.

هذه بعض الصور التي يمكن من خلالها أن تقرأ المقصد الكلي للسورة.

الحالة التي ذكرناها، وهي أن تقرأ الآيات الجزئية في داخل السورة لتدلك على المقصد الكلي، هذه تحتاج إلى وقفة مهمة وبيان مهم؛ نأتي إليه إن شاء الله في اللقاء الثالث.

بارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا.

الحلقة السابعة:

مقدمة في مقاصد السور (٣)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله الطيبين، وعلى صحبه ومن والاه؛ أما بعد:

ما زلنا أيها الأخوة الأحبة في التدرج لإدراك مراد الله عز وجل من هذا القرآن؛ وهو أعظم هدية للخلق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ۝﴾؛ فأعظم هدية لهذا المخلوق هو أن الله أنزل كلامه ليجريه العبد على لسانه.

وهذا الكتاب عظيم، لأن فيه من علم الله الذي لا ينتهي، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ﴾؛ فلذلك هذا القرآن لا يبلى من كثرة الرد، "لا يخلق من كثرة الرد".

وقد يقول قائل.. وهنا أنبه على مسألة: أن الناس قد يطلبون العلم من القرآن بمعنى المعلومة فقط؛ فيشعرون أنهم أعجز من أن ترتقي أنفسهم لالتقاط المعلومة من القرآن من خلال أنفسهم، فيتركون التدبر والتفكر. وهذه قضية تحتاج إلى بيان..

الذين يظنون أنه بسبب عاميتهم، أو بسبب ضعفهم في العلوم –علوم اللغة، علوم التفسير، علوم الحديث.. – بسبب ضعفهم أو بسبب عدم وجود هذه العلوم لديهم؛ يظنون أنهم أعجز..، وليست مرتبتهم في التفكر في هذا القرآن والتدبر لإخراج المعاني منه؛ وهذا اليأس والقنوط يصنع فيهم إعراضًا عن التفكر والتدبر، وهذا خطأ..

القرآن كتاب علم، والعلم في القرآن أشمل من قضية المعلومة؛ العلم في القرآن يلقي بظلاله على معانٍ متعددة، منها: أنه يقدم علمًا جديدًا..

ومما ذكر من إعجاز القرآن –الناس حاولوا كثيرًا، وهناك محاولات كبيرة وإلى يومنا هذا، تجري على أساس إدراك معنى الإعجاز– ما قاله بعضهم: أن هذا القرآن تحدث عن قضايا لم يتحدث بها العرب قط قبله؛ يعني: الشعراء جرت أشعارهم على ذكر الحنين..

هل غادر الشعراء من متردم....

أو:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم *** بحومانة الدراج فالمتثلم

هو وقوف على الأطلال.. يعرفون هذا؛ يتحدثون عن ناقتهم، يتحدثون عن محبوباتهم، يتحدثون عن بيوتهم وأطلالها..؛ لكن هذا القرآن جاء ليتحدث عن قضايا ليست من أخبارهم، كالحديث عن النار، الحديث عن الجنة، الحديث عن الله بأمر لا يعرفه العرب -لا يعرفونه بمثل هذا الاتساع؛ يعرفون أنه الله وأن له أسماءً وأنه الخالق، ولكن ليس بهذا الاتساع-؛ فلذلك كان من إعجاز القرآن أنه تحدث بصيغة جديدة في علوم جديدة وتفصيلية ودقيقة. وليس القصد فقط ما يقوله الذين يتحدثون عن إعجاز القرآن العددي والعلمي والنفسي؛ ولكن الموضوع أكبر من ذلك بكثير، وهو الحديث عن الله، الحديث عن الجنة، الحديث عن ما يحب الله وما يبغض.

نعود فنقول: إن العلم الذي يحصل بالنظر إلى القرآن والتدبر فيه هو فوق قضية المعلومة؛ ومرات لا يحصل علمٌ جديد بمعنى معلومة جديدة ولكن يحصل أثرٌ جديد، أي: إيمانٌ جديد في القلب.

العامي عندما يقرأ القرآن، لو أتى إلى آية، لو أتى إلى ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، فهو ربما لا يخرج منها إلا كما يخرج بحسب مرتبته من العلم، وهي أنه عامي؛ لكن في لحظة من لحظات الإيمان، وفي لحظة من لحظات الخشوع والإقبال على الله، وفي لحظة من العطاء الإلهي والكرم الرباني في رفعة هذا القارئ المخبت، يلقي ربنا سبحانه وتعالى على قلبه من المعاني الإيمانية ما تدفعه أن يقشعر بدنه وأن تبكي عينه.

هذا علمٌ لا يتعلق بزيادة معلومة خارج ما عنده، لكن هذا علم آخر وهو علم الإيمان؛ يستقر في القلب من اليقين ما لا يكون في قلب من عنده المعلومات.

ولذلك: بعض أهل العلم ممن كان يبحث الأمور على طريقة كلامية منطقية، لا يحس بما يحس به العامي من اليقين. وزيادة اليقين على العلم هو علم؛ بل إن العلم الذي لا يحصل به اليقين ليس هو من العلم في شيء، لأنه شك؛ العلم الضعيف الذي ليس في قلب المرء على معنى الثبوت واليقين، هذا ليس من العلوم، لأنه ظنون؛ إذا جاءت عليه الشبهات أزالته، فليس من العلم؛ وإنما يكون العلم بحسب تمكنه من القلب ويقين القلب عليه.

هذه الواردات الإيمانية التي تأتي على العبد العامي الذي لا تحصل عنده معلومة جديدة -كما قلت-، ولكن يحصل عنده العلم اليقيني الذي لا يكون في قلب غيره؛ حتى ولو كان متكلمًا أو خطيبًا أو مدرسًا عنده بكثرة النظر إلى القرآن.. وما يحصل بقراءة القرآن من سقي لجذور الثقة بالله، والعلم بالله، والخوف من الله، ومحبة الدار الآخرة، والخوف من لقاء الله عز وجل؛ يحصل بقراءة القرآن من السقي، ري يروي هذه العلوم فتقوى؛ وهذا من العلم.

إذاً: هذه دعوة القرآن للتدبر؛ ليس فقط من أجل استخراج المعلومة.. وهذا علم لا يستطيع المرء أن يبين به عن نفسه بلسانه، إنما يبين به بدنه، يبين به موقفه، تبين به عينه؛ عينه تبين أن العلم قد زاد في قلبه بكثرة الري

والعناية من خلال القراءة والتدبر الإيماني، عينه تبين عن زيادة هذا بأن تدمع خاشعة خائفة؛ جسده يقشعر، وربما بكى -ليست العين تدمع فقط- وربما بكى حتى تخضل لحيته من دموعه خوفًا من الله وتأثرًا بهذه الآية.

هذا علمٌ حقيقي يحصل من خلال التدبر لهذا القرآن؛ فعلى العامي أن لا يقول: أنا لا أستفيد!! بل هو يستفيد، وتظهر مواقف هذه الاستفادة بما ذكرنا، وبأمرٍ آخر عند حلول الشبهات أو الشهوات.

ربما تأتي إلى رجل يعرف الآيات، ولكن لا يسقي معانيها من خلال التدبر وكثرة الوقوف بين يدي الله، فتأتي عليه شهوة فيمشي وراءها ولا يتذكر هذا القرآن، لأنه ضعيف الصلة في قلبه، ضعيف الصلة غير متجذر؛ فتأتي الشهوة فتكون أقوى من أن يحصل من القرآن الردع في متابعتها، مع أنه يحفظ القرآن.

ولكن يأتي العامي، فتأتيه الشهوة فيتذكر آية ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ۝٢٨﴾، يتذكر موقف يوسف عليه السلام؛ فيكون العلم أقوى في قلبه.. المواقف.

تأتي الشهوات بأن يبيع دينه.. تجد الشيخ يعرف الآيات ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا۝٣﴾ يعرفها العالم، ولكنه تأتي إليه الأموال ليبيع دينه للسلطان، يبيع دينه للطاغوت، يبيع دينه لغير الله عز وجل؛ فتجده قد نسي هذه الآية، غابت عن ذهنه، لم يعد لها وجود في نفسه؛ لماذا؟؟ لأنها غير متجذرة وليست من العلم اليقيني في قلبه.

تأتي على عامي يكثر من ذكر الله، ويكثر من قراءة القرآن، وسقى هذه المعلومة ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا۝٢﴾ -هذه يعرفها كل مسلم، اسألوا المسلمين: هل تعرف هذه الآية ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا۝٢﴾؟؟ يقول: نعم أعرف هذه الآية؛ يعرفونها- فتأتي إليه الشهوات لتنزعه من التقوى إلى المعصية، فيكون العلم الذي سقاه تدبرًا -على المعنى الإيماني فيما ذكرنا- رادعًا له من أن يصيب الشر أو أن يقع في المفسدة.

ولذلك: التدبر في القرآن ليس على ما يريده البعض، وهو زيادة المعلومة، ماذا يقول القرآن؟ ماذا تفيد هذه الآية في خفائها وإشارتها؟. هذه مراتب عظيمة عند الله، ولكن ليست هي المرتبة الوحيدة للحوق بدرجة ومعنى التدبر للقرآن؛ وإنما أعظم معانيه هو ما يغزو هذا القلب من معانٍ إيمانية تسقي هذه المعاني العلمية من القرآن، تسقيها إيمانًا وتقوى.. ولذلك فصل بينهما في ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ مع أن الإيمان لا يكون إلا بعلم، والعلم لا يكون حقًّا إلا إذا كان مرقيًا لدرجات الإيمان. ولكن هنا لابد من الفصل على ما ذكرنا من أن التدبر في آيات الله القرآنية يحصل به من الواردات الإيمانية التي تغزو الناس بحسب مراتبهم عند الله.. وربما تكون غازية لقلب العامي أكثر من قلب المتكلم.

بارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

الحلقة الثامنة:

مقدمة في مقاصد السور (٤)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه:

قلنا: من أسلم الطرق وأوسعها وأسلكها في معرفة المقصد الكلي للسورة، هو أن تقرأ مواضيعها التي ذُكرت فيها، ثم ترى الجامع بين هذه المواضيع؛ وتكلمنا عن أهمية المطلع الذي تبدأ به السورة، مثال ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ دلتنا على الحديث عما يدور..

لما قال الله عز وجل -كما سيأتي-: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ۝﴾ هناك حديث عن قضية عظيمة -مع اختلاف في النبأ، والأغلب على أن النبأ هو حدث يوم القيامة-، فإن ما بعده هو شارح لهذه المقدمة؛ هذا المطلع الهائل العظيم الجليل.

لكن الناظر لهذا المبحث يعتريه أنه يجد أن القرآن هكذا هو؛ ليس من جهة القرآن نفسه، ولكن من جهة ظن هذا القارئ المتمعن الباحث؛ يظن أن هذه الآيات: ما الذي يربطها بما قبلها؟!! فلا يجد أي رابط في ذهنه؛ وهنا يأتي: لابد من الاجتهاد، لابد من البحث، لابد من التصور الذهني الواسع، لابد من الثقة بالله عز وجل وسؤاله والدعاء، لابد من التعلم؛ فهنا تأتي هذه المقدمات..

أولًا: لابد من أن تعلم مقدمة السورة، مطلع السورة، ماذا يتحدث مطلع السورة؟ عن ماذا يجري؟ هذا المطلع له أهمية عظيمة في إدراكك لمقاصد السورة؛ وقد يكون هذا المطلع عامًا من أجل قضية خاصة فيه. وأنا أكرر هنا.. مثلًا: في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الم۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ۝﴾؛ إذًا السورة تتحدث عن الابتلاء، ولكن أي نوع من الابتلاء؟ هذا موضوع تتحدث عنه السورة؛ هناك موضوع خاص تتحدث عنه السورة، ويخرج منها مواضيع أخرى تابعة لهذا البلاء هي من نوع البلاء الذي تتحدث عنه السورة كاملة.

إذًا: هنا لابد من معرفة المطلع، ولابد من تجميع الموضوعات؛ ولكن يعتري الموضوعات حديث آخر، سميته في بعض كلام لي -سابق- سميته "فتح الأقواس"، ويسميه بعض العلماء كابن الأثير الجزري يسمونه الاستطراد؛ والمقصود بالاستطراد -بصورته السهلة المعلومة للكثير- هو أن يكون الحديث عن شيء، فهذا الشيء يضطر المرء أن يخرج منه للحديث عن شيء آخر مرتبط به، فيتوسع الحديث ويستطرد المرء، يذهب مطردًا الحديث عن هذا الجانب ثم لابد من العودة.

الذي لا يتابع هذه الطريقة من الاستطراد يظن أن الموضوع قد خرج إلى موضوع آخر، فلا يستطيع أن يعود إلى الموضوع الأصلي؛ طبعًا كلمة "الاستطراد" بعض أهل العلم من البلاغيين أنكروا هذه اللفظة، ولذلك نختار كلمة جديدة وهي "فتح الأقواس"؛ ماذا يعني "فتح الأقواس"؟؟ هو أن يكون الحديث جاريًا عن الموضوع، فيأتي ذكر قضية ما، هذه القضية تحتاج إلى شرح وتحتاج إلى إبانة، فيبدأ الحديث عن هذا الموضوع الجديد، فيُفتح القوس ثم يبدأ الحديث عن هذا الموضوع الجديد؛ وربما في هذا الموضوع الجديد نفتح قوسًا أصغر من الأول، حيث يوصلنا إلى قضية أخرى يحتاج فيها للبحث من أجل أن يبنى البناء بناءً علميًا تامًا محكمًا؛ فنفتح قوسًا صغيرًا لنتحدث عن القضية التي تفرعت عن القضية الأولى، وتفرع عن هذا الفرع فرع آخر أصغر منه؛ وقد يفتح قوس آخر وقد لا يفتح.. وحينئذ لابد من العودة إلى القضية الأولى.

فمن لا يتابع، ومن لا يلقي السمع وهو شهيد، ولا يكون ذكيًا حاضر القلب، طالبًا من الله الهداية والزيادة؛ فإنه يظن أن الأمر قد فلت وخرج إلى مواضيع "ما الرابط بينها؟!! "، وينسى العودة إلى القضية الأولى.

هذه قضية –وهي النظر إلى ما تقدم– هذه مهمة جدًا، لأنها تعلمك طريقة معرفة المقصد الكلي للسورة؛ و هذه الأقواس المتعددة لا تعني أن الحديث خرج عن ما نحن فيه، بل ما زلنا في الموضوع، ولكن لأن هناك مواضيع أخرى تعلقت به، فلابد من الحديث عنها.

طبقت هذا عند بعض أهل العلم في سورة فصلت وتحدثت عنه، وكذلك طبقته في سورة الشورى.. سورة الشورى لو بحثت فيها لوجدتها تدور حول قضيتين: قضية تنوع الخلق وقضية وحدة الحق؛ سورة الشورى تتحدث عن هاتين القضيتين وهما قضية واحدة، وهي قضية المقابلة ما بين الشرع وما بين القدر، وكلاهما من الله؛ فالشرع له وجه من الخلق الإلهي يختلف عن الوجه من الأمر الإلهي.

الشرع يقول: إن الحق واحد لا يتعدد، وليس كل مجتهد مصيب، بل "إذا اجتهد العالم فأخطأ" يمكن للعالم أن يجتهد فيخطئ، له أجر ولكن يبقى قوله تحت مسمى الخطأ؛ ولكن الخلق متنوع. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ فهنا قنوط، يوجد منع ويوجد عطاء.. ﴿۞وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. الخلق –القدر– لا يأتي كله، بخلاف الحق يأتي كله؛ القرآن أتى بكل الحق فيما يحتاجه الناس، وعلمهم الحق كاملًا لم ينتقص منه شيئًا. فالحق وجهه غير وجه القدر؛ القدر اختلف –تنوع– والشرع واحد؛ ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ هذا شرع واحد وإن اختلفت بعض أحكامه التي تتلاءم بحسب الأحكام، ولكنه حق واحد؛ ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ وهو التوحيد، وذكرى الدار الآخرة، والاعتقاد بالنبوات والقدر، هذا شرعٌ واحد لا يختلف فيه نبي عن نبي؛ بخلاف ما يذكره القرآن من قضية –في سورة الشورى– تنوع الأقدار.

خلال الحديث -لو عدنا إلى سورة الشورى- خلال الحديث عن هذين الأمرين اللذين هما أمر واحد، لوجدنا أن الحديث فيه استطراد إلى قضايا أخرى ربما تبدو أنها خارجة عن هذا الإطار، وفي الحقيقة أنها ضمن هذا الإطار، ولكن على معنى ما ذكرناه من قضية "فتح الأقواس".

مثلًا ما ذكرته سابقًا في سورة "فصلت"؛ هي حديث عن مراتب الخلق المعارضين مع القرآن؛ هناك فئة من الخلق كفروا بالقرآن، وتنوعت أحكامهم على القرآن، وتنوعت طرق تعاملهم مع القرآن، هناك تنوع في التعامل؛ فالقرآن بسط لنا هذه الفئة من الناس، وبينها، وأبانها، وشرحها في سورة "فصلت"؛ ﴿حمٓ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ۝٢﴾ حديث عن القرآن.. ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ الحديث عن القرآن، ولكن عن أي جانب من جوانب القرآن؟ هذا الذي تحتاجه. إذًا المطلع دلنا أن السورة تتحدث عن القرآن، ﴿حمٓ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ﴾ الحديث هنا عن ماذا؟ حديث عن مراتب المعارضين للقرآن، وكيف تم تعامل هؤلاء المعارضين مع القرآن. لكن خلال الحديث عن هذه القضية تأتي تفريعات في داخل ما نحن فيه.

مثال ذلك: مثال ذلك ما نراه الآن في سورة النبأ؛ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ۝٢﴾ هو حديث عن نبأ عظيم مهول، ولشدة هوله صار هذا الحديث يدور بين الناس؛ هذه كاشفة -قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ۝١﴾ - كاشفة عن سياق ما يدور بين الناس من قريش في أزمانهم، وذلك دليل على اختراق -هذا المهم- اختراق الخبر القرآني لمجالسهم، حتى أرغمهم على الحديث الذي فيه إثبات ونفي، ومناقشة، وطرق الرد.. إلخ. يعني صار هناك حديث.. الدوائر المراقبة لحركة النبوة ولأتباع النبوة صارت تلاحظ أن هناك ثمة خبر ما ألقى بظلاله على الناس، حتى اضطر هؤلاء الناس أن يتحدثوا عنه.

هذا حديثٌ عن حالة اجتماعية، وحديثٌ عن حالة فكرية، وحديثٌ عن نصر حققه الخبر القرآني بإلقائه بين الناس؛ أن يبقى الرجل متحدثًا في بيته مع أبنائه، ولا يخرج الحديث إلى الناس؛ هذا ليس من نصر الأخبار. أهم ما يريد الطاغوت منك ويريد العدو منك، هو أن يبقى الحق محصورًا في داخل بؤرة صغيرة يدور بينهم الحديث ولا يخرج إلى الناس؛ وبعض الجهلة من الخلق يظنون أن هذا الحديث وإبقائه على هذا المعنى هذا نصر، فإذا حاول المرء أن يخرج هذا الخبر ليكون عامًا يدور عنه خبر الناس وحديث الناس، يظن أن هذا من الضعف ومن الجهل، بل يحاربون هذه المحاولات.

القرآن يحدثنا عن أن خبر النبأ العظيم صار سؤالًا يدور في المجالس والبيوت والرفقاء والمجالس..، صار على هذا المعنى؛ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ۝٢﴾ إذاً هناك تساؤل.. والقرآن لم يذكر هنا أنهم أنكروه أو لم ينكروه، هناك تساؤل؛ طيب -إذاً هو حديث عن النبأ العظيم- خلال السياق قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّ

يَتَسَآءَلُونَ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ۝ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ۝ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ۝ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا۝﴾ هذا فتح باب مهم جدًا، لابد من وجود تصور لحالة الاختلاف، لماذا نشأ الاختلاف؟؟ القرآن –وهذه مهمة جدًا لمعرفة الترابط بين الآيات– يترك مساحة من التصور الذاتي الذي يُبنى على العلم ويُبنى على الخصوصية، خصوصية الهداية لهذا الشخص دون غيره؛ صار اختلاف ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ۝ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ۝﴾ هذا النبأ العظيم اختلف الناس فيه، اختلفت قريش عليه اختلافًا أطلق –ربما اختلفوا في كيفية رده، وربما اختلفوا: هل يمكن أو لا يمكن؟ –؛ لابد من كلمة الحق أن تحدث أثرها في نفوس المعارضين لها، لما لها من القوة، كما قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾، ماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم﴾ هذه الكلمة مع إنكارهم لكن حصل تنازع، اختلفوا.

طيب.. هنا يأتي الحديث الذكي الذي به يفترق الناس في مقاماتهم؛ ما هو سبب إنكارهم لهذا النبأ العظيم؟؟ عامة ما يتحدث به هؤلاء ما هو؟؟ أن القدرة الإلهية عاجزة أن تعيد التراب إلى ما كانت عليه؛ هذا حديث السذج وحديث قريش –هناك من بعدهم من المتكلمين لهم ردود أخرى، وهناك من لا يؤمن بالقدر لأنه لا يرى الحكمة الإلهية في قضية عودة الناس إلى الحساب والعذاب في الآخرة– أغلب مخالفة قريش لقضية الغيب ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ۝﴾ هل يستطيع ربك أن يجعل هذه العظام النخرة التي تتناثر بين يدي لخوائها وضعفها أن يعيدها؟ فجاء الرد القرآني على هذا الاعتراض ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا۝﴾.

إذًا: هذا ليس خروجًا عن السياق؛ فُتح قوس لمعالجة العلة التي بها تم الاختلاف، وهو النظر إلى قدرة الله سبحانه وتعالى.

فهذا بابٌ مهمٌ جدًا للدخول والولوج إلى قضية المقصد الكلي للسورة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

الحلقة التاسعة:

المقصد الكلي لسورة النبأ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله:

وعدنا بعد أن تكلمنا عن مفاتيح معرفة المقصد الكلي للسورة الواحدة، وتكلمنا عن المقاصد الكلية للقرآن الكريم؛ فهنا لابد من النظر إلى إدخال المقصد الذي تنفرد به السورة مع المقاصد الكلية للقرآن الكريم؛ يعني: لا يمكن أن تخرج السورة الواحدة عن المقاصد الكلية للقرآن الكريم.

وعدنا أن نتكلم عن بعض السور تمرينًا، سور قصيرة من المفصل؛ وتعلمون أن جمهور العلماء يرون أن المفصل يبدأ من سورة "ق"، وبعض أهل العلم يقول: من سورة "الحجرات"؛ على خلاف بينهم.

فجزء عم -في أغلبه- يتحدث عن قضية الغيب القادم الذي يتعلق بيوم القيامة، وما يحدث فيه من هول هذا اليوم، والتعامل مع المنكرين له، ومعالجتهم دنيويًا وأخرويًا؛ ولذلك نبدأ بسورة "النبأ"، التي هي أول سورة من الجزء الثلاثين -وأنتم تعلمون أن التقسيم هذا، وهو تقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب، هو تقسيم حادث، وللعلماء عليه ملاحظات، وخطأوا بعض وجوهه، ويرون أن التقسيم يدخل عليه الكثير من الملاحظات والأخطاء-؛ عندما ننظر لهذه السورة -تقدم الكلام عنها بعض الشيء، ولكن لنرى كيف نقرأ المقصد الكلي لهذه السورة..

قلنا: لابد من ملاحظة السورة التي قبلها؛ لابد أن نلاحظ هل هناك ثمة ترابط -لابد من ترابط؛ ولكن هل هذا الترابط يبدأ بالمطلع أو يكون تامًا في قضية المقصد الكلي؟؟ عندما تحدث القرآن في سورة المرسلات، وهي السورة التي تسبق سورة النبأ، نرى أن الله سبحانه وتعالى يتحدث: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ فهو حديثٌ عن يوم الفصل، يختم بمقامات الناس في يوم الفصل، وكيف يكون حال المتقين، ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ۝ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ۝ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. ثم يتحدث عن المشركين، ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ۝ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ۝ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾.

إذًا: هنا إشارة إلى أن الحديث الذي سيكون بعدها هو حديث عن قضية يوم الفصل وما فيه؛ لكن الحديث عن يوم الفصل يدور في مستويات متعددة. من هذه المستويات: الحديث عن المنكرين، الحديث عن حالهم معه، الحديث عن مقدماته، الحديث عما يجري فيه، الحديث عما يكون للمؤمنين..؛ فالحديث عن اليوم الآخر هو حديث متشعب متعدد الجوانب.

هنا تبدأ –كما تقدم– السورة بالحديث عن مقصدها؛ والسور القصيرة يكون الدخول في مقاصدها مباشرة؛ ولأننا سنرى –إن شاء الله– أن بعض السور يمهد في مطالعها للمقصد الذي تريده هذه السورة، كما سنرى في سورة "يونس"..

في سورة "يونس" يمهد مطلعها لأهم مقصد فيها –مع أن المقاصد متعددة، وإن كانت تشترك في قضية علاقة الناس مع الإيمان ومستوياتهم، ولكن سورة يونس –كما سيأتي– تتحدث عن قضية الإيمان الذي يقع به الاختيار، وليس الإيمان الذي يقع به الإجبار عند اللحظة النهائية من الحياة؛ ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾، الحديث عن هذا؛ ولذلك فيها –كما سنرى– عندما آمن فرعون ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَاْ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾، لم يقبل الله عز وجل إيمانه الذي نشأ عن طريق الاضطرار –لحظة الغرغرة كما في الحديث– ويشرح هذا نص النبي ﷺ. فهناك في سورة "يونس" نرى تمهيدًا في مطلعها لمقصدها الكلي؛ ولكن السور القصيرة يكون الكلام مباشرة داخلًا في المقصد.

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ۝٢﴾ قلنا: هذا حديث عن انتصار كلمة الحق، وأنها استطاعت أن تدخل حوارًا داخليًا في داخل المجتمع الجاهلي؛ حديث يدور بين الكبار، هذا الحديث ليس عن الصغار وليس عن التابعين، إنما الحديث عن الكبار، حديث عنهم هم الذين يجابهون الدعوة، هم الذين يقاومونها؛ فجاء الحديث عما يدور بينهم من الحوار..

مما يقتل الداعي –وهذه نقطة جديدة– هو أن يقع في ظنه ووهمه أن الآخر معرض عنه؛ القرآن عالج هذه القضية في مواطن، منها هاهنا ومنها في سورة "الشعراء". في سورة الشعراء: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ۝٢٧﴾، هذا حديث معرض وحديث مستهزئ، ولكن تابع النبي ولم يقف عند هذا الاستهزاء ولم يره مانعًا له من التبليغ؛ يعني هكذا يبدؤون معك، يبدؤون بالاستهزاء –والاستهزاء هو حالة من حالات الإعراض– ثم يبدؤون بالانتباه على وجه من النقد، ينقدون، يحاورونك.. وهذا انتصار، مجرد أن يقبل الخصم أن يحاورك هذا انتصار؛ وبعد ذلك يتم الإلزام، فحين يقع الإعراض مع الإلزام يقع التهديد ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ۝٢٨ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ۝٢٩﴾. انظر إلى الحالة الأولى من الاستهزاء به إلى التهديد!! وبعد ذلك قَبِل فرعون بالمناظرة العلنية، وهذا انتصار.

الدعوة لا تسير سيرًا فجائيًا خارجًا عن إطار السنن، ولكنها تتدرج في تعاملها مع الخصم من أجل أن يتحقق المقصد النهائي من انتصار الحق. وهو ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ۝١﴾، هذا انتصار؛ وقع الانتصار بأنهم بدأوا يتحاورون عن هذه القضية..

أعود وأقول: مما يقتل الداعي أن يظن أن الآخر لا يلتفت إليه؛ هو يتصنع التغافل، يتصنع الإعراض –لا يسمع لك.. لا قيمة لك– لكن في الحقيقة: هو يذهب ويرى وينقب عما تقول. وهذا نجده حتى عند خصوم العلماء وعند الخصوم في الدعوة؛ تجدونهم يردون يقولون: هذا الطفل صغير لا يُسمع له!! ولكن في النهاية يبحثون عما يقول، ويتشوفون لما يحكيه، ويبحثون عن كتبه.. حتى وأنت تكتب في هذه الوسائل الجديدة الموجودة اليوم، هم يظهرون أنه لا قيمة لك، ولكنهم يتسللون ليعرفوا ماذا تقول؛ وأنت من خلال هذا التسلل تصنع فيهم انهيارًا لما هم عليه وضعف، وكذلك تصنع عندهم حقدًا زائدًا لتصل إلى الذروة من المواجهة بين الحق والباطل.

فهذا انتصار؛ القرآن يسجل انتصارًا في قضية الحديث عن اليوم الآخر، وهي قضية إيمانية مهمة جدًا؛ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ۝﴾ هو نبأ عظيم، الله يقرر أنه نبأ عظيم، ولعظمته دخل في مجالسهم حوارًا ومناقشة ومخالفة قبولًا وردًا. إذًا: هو حديث عن اليوم الآخر؛ الصواب كما قال قتادة، وإن كان مجاهد يقول: إن النبأ العظيم هو القرآن، وهذا الذي مال إليه الشيخ دراز؛ والصواب أن النبأ العظيم هنا هو اليوم الآخر.

﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ۝﴾ هنا العلم بمعنى الحقيقة، ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ۝﴾ أي: سيرون الحقيقة، ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ۝﴾؛ ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ۝﴾ هم يعلمون أن الحق معكم، ولكن هو يقول سيرون، سيتحقق؛ وهذا العلم بمعنى الحقيقة. ما هو العلم؟ العلم هو الصدق، هو الإخبار عن الشيء كما هو؛ المهم هنا –كأننا نفسر تفسيرًا تامًا!! ولكن لابد من أجل النظر إلى المقصد الكلي..

هو حديث عن يوم القيامة؛ ولكن لأنهم قد اختلفوا وحصل التنازع، فظنوا أنهم بإلقائهم هذه التهمة –أن الله ليس بقادر على أن يحيي الموتى– جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا۝﴾ ثم تقرأ هذه الآيات التي فيها دلالة على قدرة الله، ولكن ينبغي أن تلج إلى داخل هذا التنوع في هذا الخلق.

قد يقول قائل: إن الله يقدر أن يخلق من لا شيء –هب أن رجلًا قاله، مع أنه خلاف القياس العقلي الأولي– لو أن رجلًا قال: يقدر أن يخلق ابتداءً، ولكن لا يقدر أن يعيد، لأن الإعادة فيها معانٍ لا تكون في الابتداء!! وقد يحتج محتج اليوم بمقالة الجاحظ مثلًا، الجاحظ يقول: إن الرجل يستطيع أن ينشئ صفحات من جهة نفسه، لكن أن تصحح خطأ الكاتب أصعب عليه من أن ينشئ إنشاءً جديدًا؛ قد يقوله!! مع أن هذا القياس فاسد، لكن قد يقوله.

لكن هنا القرآن –في ذكر هذه المخلوقات الدالة على قدرته النافذة والمطلقة– ذكر تنوعًا عجيبًا، من الشيء وضده أو الشيء وما يقابله؛ انظر ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا۝ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا۝﴾ مهادًا: سهلًا؛ وخص الجبال لما فيها من خصوصية؛ والجبال ذكرها في القرآن كثير مما تختص بذكره، لأنها مخلوق عجيب؛ فالمهم: الأرض مهاد ولكن الجبال أوتاد، الأرض سهلة والجبال ليست كذلك هي أوتاد. انظر إلى هذا التنوع الدال على أن القدرة لا تجري في اتجاه واحد، ولكنها مطلقة تصنع الشيء وضده، وتوجد الشيء وتميته، ثم تعيده إلى الحياة، وهكذا. إذا

رأيت هذا المعنى، رأيت أن الاختلاف قد قضي عليه، الاختلاف الذي ينشئه وهم عدم تصورهم لنفاذ القدرة المتعددة والمتقابلة، قد قضت عليه هذه المعالم الدالة على قدرته.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا۝٨﴾ ما هو الزوج؟ الزوج ليس نفس الشيء ولكنه قسيمه، وقسيم الشيء ليس هو؛ ﴿أَزْوَٰجًا۝٨﴾ الشيء وضده، خلق الله السالب والموجب، خلق الذكر والأنثى، خلق النار والماء، وهكذا، ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا۝٨﴾.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا۝١١﴾ هذا حديث من أجل أن يبين أن القدرة مطلقة في قضية المتناقضات والمتعارضات وأنه لا يعجزه شيء؛ ثم بعد ذلك الله عز وجل –لأن هذا لابد منه– ذكر سبحانه وتعالى ما سيقع في يوم القيامة، ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا۝١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا۝١٩﴾ هدم لهذه المكونات الموجودة ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ التي ذكرها، انظر كيف كانت الجبال.. لما ذكر الجبال ذكر المهاد، لكن يوم القيامة كيف ستكون الجبال؟ ذكر هذه المعالم الموجودة وكيف ستتحول يوم القيامة إلى صور متعددة.

ثم ذكر القرآن بعد ذلك في هذه السورة ذكر مقامات الناس وتنوعهم؛ ماذا سيكون مقام المؤمنين؟ وفصّل تفصيلًا يتلاءم مع الحال.. فصّل في ذكر حال الكافرين، كيف سيكون حالهم؟. وحال المؤمنين، كيف سيكون حالهم؟.

هذا مما يدل على أن السورة.. ولو رأيت على هذا المعنى رأيت أن السورة لها مقصد واحد، وهو الحديث عن يوم القيامة؛ لكن عن أي حديث؟ هو الذي تقدم ذكره، ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ۝١﴾ أي: حديث القرآن عن المنكرين ليوم القيامة وما سيكون في يوم القيامة، لأنه قال فيها: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ۝٣﴾ ماذا سيكون حالنا؟ هذا من الاختلاف؛ طيب.. لو بعثنا يوم القيامة، ماذا سيكون حال آبائنا؟ أين سنكون نحن؟ هنا ليس فقط الاختلاف حول وجود يوم القيامة أو عدم وجوده، ولكن الخلاف كذلك عما سيكون فيه من أحوال الخلق وتنوع نهاياتهم ومقراتهم إما في جنة وإما في نار؛ فحسم القرآن هذ الاختلاف ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ۝٣﴾.

والحمد لله رب العالمين.

الحلقة العاشرة:

علم المناسبة في سور مختلفة

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين؛ جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم، آمين آمين.

من العلوم التي يمكن للمرء أن يتعامل مع القرآن الكريم من خلالها –لإدراك مقاصد السور الكلية، أن يقرأ السورة قراءة الموضوع الواحد– هو أن يقرأ السورة من خلال سياق أقرانها من السور؛ وهذا أمر ربما ينكره البعض، لأن علم المناسبة أصلًا أنكره بعض أهل العلم كالعز بن عبد السلام، وهناك من تكلف الكثير في ذكر المناسبات؛ والظاهر أن الإمام العز بن عبد السلام رحمة الله عليه أنكر هذا لما رأى هذا التكلف، وثانيًا: لأنه يقول: إن هناك السور الطويلة –السور الطوال المعروفة– هناك تكلف في ذكر المواضيع فيها، فالأحكام –كما نرى في البقرة مثلًا– نرى أن هناك ثمة أحكام متوالية: الكلام عن الجهاد، الكلام عن النساء والطلاق والزواج، كلام عن الحج، كلام عن القصاص؛ فما هو الجامع؟؟ فيقول: هذه من الصعب أن تجد الرابط بين الآية والتي تليها؛ فلذلك أنكر هذا العلم –علم المناسبة–.

ولا شك أن هناك ثمة تكلف –مرات– في ذكر بعض المناسبات بين الآية والتي تليها؛ ولو وضعت معنى المناسبة في الإطار العام أنه حديث عن الأحكام، كما نرى في سورة "المائدة" تذكر فيها الأحكام، "المائدة" من بدايتها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾؛ مع أن فيها كذلك الحديث عن عيسى عليه السلام، والحديث عن أهل الكتاب وعن تغييرهم وتبديلهم، وفيها كذلك ذكر قصة موسى عليه السلام في دخول الأرض المقدسة؛ ولكنها سورة الأحكام. فلو وضعت الآيات في هذا الإطار يمكن أن نجد المناسبة بهذا المعنى الكلي؛ والنظر إلى المعنى الكلي يهديك إلى ذكر موطن الآية أو الموضوع في هذا الإطار الكلي. مثال ذلك:

في سورة النحل؛ هذه سورة سماها ابن القيم عليه رحمة الله بسورة النعم الكلية، سماها سورة النعم الكلية؛ فيها ذكر كليات النعم، وقد ذكرت فيها كلمة "نعمة الله" كثيرًا –ربما اثنا عشرة مرة أو ثلاث عشرة مرة، الآن لا أذكر– فكلمة النعمة ذكرت فيها. وهي ابتداءً فيها ذكر قيام الساعة ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾، ثم أفاض في ذكر النعم الإلهية وبين

تفصيلاتها، وبين في آخرها مقام المنكرين لهذه النعم ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾.

من الأمور التي أنبه عليها في هذا اللقاء، في قضية معرفة القضايا الكلية في السورة الواحدة؛ هو النظر إلى السور التي يجمعها رابط واحد. مثال ذلك: نحن نعلم أن هناك سور تسمى "الحواميم" –وأذكر مرة بعد مرة: ان بعض أهل العلم كالحسن البصري عليه رحمة الله أنكر هذا الاسم، ولعل الإنكار سببه هو اللفظ الذي يشير إلى النار، ويشير إلى الحمّى وإلى الشدة؛ مع أن شعار الصحابة رضي الله تعالى عنهم في إحدى معاركهم "حم لا ينصرون"، واختلف أهل العلم في "حم لا ينصرون": هل هما جملتان أو جملة واحدة؟ كما ذكر ذلك أبو عبيد القاسم بن سلّام؛ وليس هذا موطنه، فيستطيع الإخوة مراجعة هذا التفصيل في تفسيري لسورة "الشورى"، فقد ذكرت هناك هذا الأمر، والكلام عن الحروف المقطعة وما اخترته فيها..

ولكن مما ينبغي الاهتمام والتنبيه له، أن هناك ثمة سور يجمعها جوامع؛ مثال ذلك:

نرى هناك سورًا تسمى بالمسبحات؛ ما هي المسبحات؟؟ هي السور التي افتتح بها تسبيح الله عز وجل؛ فابتدأت بالمصدر ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، هذه سورة تتحدث في كليتها عن قضية بني إسرائيل، وتتحدث عن سنن دمار الأمم والقرى وكيفية بقائها ودوامها، ولكن هي سورة تتحدث عن بني إسرائيل، من ابتدائها ترتبط هذه السورة من الابتداء إلى الانتهاء؛ وحديث عن موطن بني إسرائيل في قضية الصراع مع المؤمنين، وذكرت هذا في تفسيري لسورة الإسراء، فأرجو أن تراجع هناك؛ ولكن مما ينبغي التنبيه عليه: أن الصراع العسكري بيننا وبين اليهود قديمًا –بين الأمة واليهود– لم يكن طويلًا؛ الصراع الأكبر بين النبي ﷺ وبين خصومه كان مع قريش، واليهود كانت غلوة أو غلوتين فانتهى أمرهم، يعني: لم يكن هناك كبير قتال مع اليهود، لم يقع قتال حقيقي بين النبي ﷺ واليهود، لم يقع؛ بل في كل مرة يتم الخزي عليهم والغلبة عليهم بالرعب، وبالجبن الذي يتمكن من قلوبهم. ومع ذلك، القرآن يتحدث عن بني إسرائيل حديثًا طويلًا في سورة الإسراء وفي بقية القرآن، ولكن قضية الصراع بين المؤمنين واليهود تتحدث عنه سورة الإسراء.

هذه "المسبحات"، هل هناك ثمة رابط بينها؟؟ يعني: السورة الأولى هي ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، السورة الثانية في "المسبحات" هي سورة الحديد، والتي بعدها هي سورة الحشر، وبعدها تأتي سورة الصف، وبعدها تأتي سورة الجمعة، ثم التغابن، ثم الأعلى؛ هذه تسمى بالمسبحات. افتتحت بالمصدر "سبحان" وختمت بالأمر "سبح"، وبينهما وقع فعل الماضي ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والمضارع ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كما في الجمعة والتغابن؛ وأما الفعل الماضي، ففي الحشر والصف، وكذلك في الحديد.

هل هناك ثمة رابط بين هذه السور؟ ليس فقط مناسبة السورة لما يليها، ولكن الرابط بين السور التي يجمعها اسم واحد ومعنىً في الافتتاح واحد؟ الذي أعتقده من خلال النظر إلى هذه السور -وذكرت هذا عند تفسيري لسورة الإسراء- أن هناك ثمة رابط بين هذه السور، هناك رابط مهم بين هذه السور.

أنت تتعجب مثلًا.. لا يمكن حل بعض التعجب والتساؤل إلا بالنظر إلى موضع السورة من هذا الإطار العام الجامع للاسم الواحد بينها؛ مثلًا في سورة الصف: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ① يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ②﴾!! تشعر أن هناك ثمة سؤال وقضية مطروحة؛ هذا التساؤل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ②﴾، يمكن للمرء أن يضعها في إطار لا يختص بحادثة، وإنما هو سؤال عام لمن يقول ولا يفعل، لمن يدعي ولا يتلبس بالحقيقة، يمكن هذا؛ ولكن هذا لا يشفي الغليل، الذي يشفي الغليل أن هناك ثمة حقيقة موجودة تتعلق بسياق ما مسبوق ذكره من قبل عند الكلام حول هذه النقطة. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ..﴾ أين حدث هذا؟ إذًا هناك ثمة قضية تتحدث عنها السورة ويقوم هذا التساؤل حولها؛ في ظني، لا يمكن معرفتها إلا من خلال سياق هذه السورة في "المسبحات"، أنها حديث عن قضية مهمة جدًا.

طيب.. "الحديد" هل لها ارتباط بـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾؟؟ نعم، الكلام عن مشروع الحديد الذي أنزله الله عز وجل فجعله للنصر والتأييد ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ﴾؛ فالكلام عن الحديد ضمن قضية سورة الإسراء وصراع أهل الإيمان مع اليهود. هذا ارتباط جذري وقوي ومهم جدًا؛ ونرى أن الجامع بين "المسبحات" هو الحديث عن أهل الكتاب، إلا في سورة لا نرى أهل الكتاب، في سورة التغابن لم أر ذكر أهل الكتاب فيها، مع أن فيها ذكر المعارضين للدين الذين رفضوا الآخرة ورفضوا الإيمان باليوم الآخر، وفيها الأمر بطاعة الله عز وجل، ولكن ليس فيها الذكر اللفظي لأهل الكتاب، بخلاف السور الأخرى نجد فيها ذكر أهل الكتاب.

فإذًا: هذا نوع مناسبة ينبغي أن تعتني به.

الآن الكلام كله من أجل وضع علامات للدلالة على المعاني؛ وأما البحث فيها، فهذا متروك لك ومتروك لبصيرتك أن تبحث وأن تكتشف، من غير دعوة لأمور فيها التكلف؛ يعني أنا أنبه: إن علم المناسبة هذا ينبغي الابتعاد فيه عن التكلف؛ يقع مرات تكلف غريب جدًا في ذكر المناسبة، وهذا -كما قلت- من أسباب إنكار بعض أهل العلم للمناسبة، ولكن هذا -في الحقيقة- علم قوي ومهم، ويهديك إلى موضع ذكر الآية أو الموضوع في السياق العام للسورة.

وهنا رأينا شيئًا جديدًا، وهو ذكر السورة في سياقها العام في قضية كلية تتعلق بقرينات هذه السورة وشبيهها؛ مثال ذلك:

نرى ذكر الكتاب الحكيم في سورة يونس، ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ①﴾؛ نرى ذكر الكتاب الحكيم في سورة يس، ﴿يسٓ① وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ②﴾؛ نراه في سورة لقمان. هل هناك ثمة جامع؟؟ هذا متروك لطالب العلم؛ وربما -إذا قدر الله عز وجل أن يكون هناك شرح مطول- نجيب على هذا. ولكن لابد من النظر إلى ذكر الحكمة في أولها للدلالة على حكمة الكتاب في قضية مذكورة في هذه السور؛ وربما تجد عاملًا مشتركًا وهو قضية الحكمة، الحكمة على نوع ما هنا، والحكمة على نوع ما هنا، والحكمة على نوع ما هنا؛ كما نرى في السور التي تفتتح بالحمد..

لو نظرت إلى السور التي تفتتح بالحمد لوجدت أنها توزعت على موضوع الحمد الإلهي التام الشامل لما شرع وما خلق وما أكرم وما أنعم؛ يعني: أول سورة هي ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ②﴾، هذا الافتتاح الجليل العظيم بقضية حمد الله في أول سورة له معنى عظيم؛ ولكن هذا حمد عام شامل ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ②﴾، وكما يقول الشنقيطي عليه رحمة الله في أضواء البيان: هذا الحمد شامل لكل محامد القرآن التي تلت هذه السورة. ثم نجد بعد ذلك حمد الله عز وجل في سورة الأنعام، وهي أول سورة مكية من الطوال -السور التي سبقتها: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، هذه كلها سور مدنية؛ ولا شك أن الفاتحة لا تدخل في هذا الاعتداد مع أنها سورة مكية- تفتتح السورة المكية الأولى بالحمد لله عز وجل الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور؛ وكذلك تجد الحمد بعد ذلك في السور الأخرى كما تجد ذلك في مطلع سورة الكهف -هنا حمد على ما خلق، وهنا حمد على ما أنزل- وكذلك تجدها في سورة سبأ وفي سورة فاطر. وهذا الاتصال الوثيق في المطلع الواحد لمطالع السور التي تجتمع بها هذه المطالع، لها معان متصلة ومشتبكة.

والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين.

الحلقة الحادية عشر:

القرآن وصناعة المسلم الصحابي (١)

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه؛ والصلاة والسلام على سيد الخلق وإمام المرسلين، وحبيب رب العالمين، مُحَمَّد؛ وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين؛ جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم.. آمين آمين.

المعضلة المعاصرة التي يتساءل عنها المجتمع: لم غير القرآن الصحابة ﷺ؟ ولم أن هذا القرآن الذي بين أيدي الصحابة يقرؤونه ويتلونه، هو نفس القرآن الذي نقرأه ونتلوه ونتمعن فيه وهو لا يغير حياة الناس؟ ما هو الشيء الذي يغيب عن هذه المعادلة؟ هل المعادلة هي وجود قرآن مع قارئ له ومتدبر ومتمعن، فينتج مسلمًا صحابيًا فاعلًا يعيش قبسًا من نور النبي ﷺ، الذي سمته أمنا عائشة رضي الله تعالى عنها «كان خلقه القرآن»؟

خلق القرآن؛ الناس يغفلون عن هذا الخلق المتسع، فيتحدثون عن الخلق بمعنى اللفظ الاصطلاحي الذي انتشر؛ وهو أن يكون المرء خلوقًا، أن يكون الرجل صادقًا، أن يكون أمينًا، أن يكون صالحًا في المجتمع نافعًا له.. بمعنى كلمة الأخلاق الاصطلاحي. مع أن كلمة الأخلاق هي أوسع من ذلك، ودلالة كلمة عائشة ﷺ «**كان خلقه القرآن**» تتسع لكل ما جاء به القرآن؛ يعني مثال ذلك:

هذه السورة التي تسمت باسم هذا النبي ﷺ، وهي سورة مُحَمَّد -وكذلك تسمى بسورة القتال-، هذه السورة تمثل شخصية النبي ﷺ، وتمثل بعض أخلاق النبي ﷺ..

وهنا أنبه: أن النبي ﷺ باسمه لم يُذكر في القرآن إلا على جهة الخبر، وليس على جهة الأمر والنداء؛ بخلاف الأنبياء السابقين، فقد ذكرت أسماؤهم على جهة الخبر وعلى جهة النداء ﴿يَٰمُوسَىٰ ١٩﴾. ولكن الاسم النبوي الشريف مُحَمَّد -ﷺ- لم يذكر في القرآن إلا على جهة الخبر، ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ وليس: يا مُحَمَّد، إنما هي ذكر لأوصافه ﷺ وتنبيه على شأنه.. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ فهي حديث عنه؛ وليس في القرآن نداء للنبي ﷺ باسمه، وإنما نودي بأجل ما يوصف به ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، نودي في مطالع السور بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، في سورة الأحزاب، في سورة التحريم نودي باسمه ﷺ في مطلع السورة، وفي سورة الطلاق نودي بوصفه الجليل الكريم -أي: النبي ﷺ-.

نعود: هذه السورة تمثل خلق النبي ﷺ؛ النبي المجاهد المقاتل هي خلق النبي ﷺ في القرآن، النبي صلى الله عليه وسلم الصابر هي من أخلاقه ﷺ في القرآن؛ عندما تحدث القرآن عن الصابرين، تحدث عن المخبتين، تحدث عن

القائمين، تحدث عن المجاهدين، تحدث عن الذين يبيعون أنفسهم لله ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾؛ هي حديث عن النبي ﷺ وأخلاقه.

فالصحابة ﷺ اقتبسوا هذا المعنى من شخصيته ﷺ، فكان خلق الصحابة القرآن؛ ومن هنا تمثل شعارهم بقولهم "الصحابي القرآني".

ما نريد العودة إليه هو: كيف نصنع المسلم الصحابي، أي القرآني؟ ما هي المعادلة التي لو اجتمعت أطرافها وأفرادها كونت لنا المسلم الصحابي؟ القرآن هو القرآن.. مع أن تنزل القرآن في الابتداء له من المعاني العظيمة ما لا يمكن أن نعيشها بكليتها كما عاشها الصحابة؛ ولكن يمكن للمرء أن يحاول أن يصل إلى معانيها. وأمثل لكم أمثلة لتقريب هذا المعنى:

الصحابي لا يحتاج إلى كبير عناء لمعرفة المعنى الأول العظيم للآية التي نزلت عليه، وهو يعيش حدثها ويعيش معالجة القرآن لها؛ مثال ذلك: لما الصحابة رضي الله تعالى عنهم غزوا القسطنطينية –بعض الصحابة وأغلبهم من التابعين– وكان عليهم يزيد بن معاوية؛ فخرج رجل من بين الصفوف وانغمس في صفوف الروم، فقال الناس: ألقى هذا الرجل بنفسه إلى التهلكة!! كان معهم أبو أيوب الأنصاري، فنهاهم عن هذا التفسير وقال: هذه الآية ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ نزلت فينا معشر الأنصار؛ ذلك لما انتصر هذا الدين، قال الأنصار لأنفسهم: لنعد إلى مزارعنا، إلى أعمالنا، إلى أشغالنا، وقد نصر الله دينه، فنحيي ما تلف منها؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة ترك الجهاد والإقبال على الدنيا.

هذا المعنى، يحتاج المرء من غير الصحابة إلى شيء من المعاناة، إلى شيء من الجهد، إلى شيء من التعلم الذي يقع من خلال واسطة بعيدة نوعًا ما مقارنة بما حصل للصحابة؛ الصحابة عاشوا حدث القرآن..

وأنتم تعلمون –والكل يعلم– أن أعظم أنواع العلم هو الذي يحصل بدفع الثمن، أي بالممارسة والمجاهدة؛ فإذا عاش المرء العلم حدثًا يلامس جوانحه كلها، عاش مع ماله.. دفع ثمنًا ما من بدنه، قتل أخيه، قتل أبيه، قتل أمه، إنفاق المال، قطع رجله وبقي حيًا؛ فإنه يتعلم بالثمن، وهذا التعلم يبقى أثره الذي لا يمحوه الزمن، يبقى حاضرًا في ذهنه. بخلاف الكلمات، الكثير منا تعلم كلمات كثيرة نسيها وذهبت مع رياح الزمن وأدراجه.

فالصحابة إذًا كانوا يعايشون القرآن معايشة الملامس المباشر له؛ هذه قضية نحن إذا أردنا أن نعيش القرآن في المعاني التي جاء بها، فإننا نعيش بواسطة؛ أو نعيش في حالة ما مع وجود كمية العلم الكبيرة. وكما ذكر عن علي رضي الله تعالى عنه: "العلم نكتة صغيرة كثرها أهل الجهل"، –بغض النظر عن صواب نسبتها لعلي– ولكن فيها الكثير من الحق؛ لأنك في هذا الزمان إذا أردت أن تصل إلى الكثير من الحقائق، فإنك تمر بالكثير من أكوام الباطل للوصول إليها.

الصحابة لم يكن هذا موجودًا عندهم، لأنهم يأخذون مباشرةً من النبي ﷺ، والوحي ينزل عليهم فيأخذونه مباشرة، فالحق عندهم جلي؛ نحن عندنا الحق فيه كثير من الدخن. وأنت تجد الناس يجتمع فيهم خير وشر، يجتمع فيهم حق وباطل؛ فهذه من الأمور القدرية التي فيها جوانب خير كثير، وكذلك فيها جوانب تأخر.

الله عز وجل اختار الصحابة رضي الله عنهم كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: نظر الله في قلوب الخلق، فاختار خير القلوب لصحبة النبي ﷺ؛ فالصحابة هم أهدى الناس قلبًا، وأعلم الناس عقلًا، وأكثر الناس أخذًا للعلم من أجل العمل؛ يأخذون العلم من أجل العمل، بخلاف التزيد الذي حصل في القرون التي جاءت بعد الصحابة رضي الله عنهم، في ما قال النبي ﷺ: «**من تعلم العلم ليماريَ به العلماء أو يداري به السفهاء فقد برئت منه ذمة الله**» أو كما قال النبي ﷺ.

إذًا: نريد أن نبحث بعد هذا التطواف: ما هي المعادلة المقاربة –لأن إصابة الحالة الصحابية في كل جوانبها ممتنع، ولم يحصل بعد عصر الصحابة أن جاء جيل بكل ميزات وخصال الصحابة رضي الله عنهم؛ لكن نريد أن نعيش كأفراد أقل شيء، وليس في إحياء مجتمع ليكون مجتمعًا قرآنيًا على طريقة النبي ﷺ «كان خلقه القرآن»، أي: ليصبح هذا المجتمع خلقه القرآن؛ فأقل شيء نبحث نحن عن المقاربة– ما هي المعادلة التي تكون المسلم الصحابي؟ المعادلة وجود قرآن...

وهذا القرآن –بفضل الله عز وجل– تكفل الله بحفظه، ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ٩**﴾؛ ولكن هاهنا نقطة: القرآن يقرر أن التحريف ممنوع عن القرآن، التحريف اللفظي لا يمكن أن يكون؛ حتى يحصل ما أخبر به النبي ﷺ فيما ورد عنه –مع الخلاف في التصحيح– بأن القرآن يُرفع في آخر الزمان، يقوم الناس من نومهم فلا يجدون القرآن وقد أُسري به، ولم يعد موجودًا في الأرض؛ فالقرآن بحروفه ونضارته كما أنزل، موجود إلى الآن، موجود كما هو. ولكن القرآن لم يمنع من وجود تحريف المعاني له، لم يمنع؛ ﴿**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ**﴾، إذًا القرآن يقرر حقيقة أنه يمكن أن يحرف معنى القرآن عند السامع، لأن القرآن جعل مراتب هذه الآيات على معنيين: آيات محكمات، بمعنى: هذه الآية لا يمكن أن يختلف فيها الناس، وذلك لأنها جاءت على صيغة النص أو صيغة المحكم أو صيغة المفسر كما يقول أهل الأصول؛ وهناك آيات متشابهات، فالله أوجدها لماذا؟؟ كما أوجد سبحانه وتعالى.. "أوجد" هنا نتسمح؛ مع أن القرآن هو كلام الله ولم يوجده بمعنى الإيجاد أي الخلق، ولكن هنا يقع التسمح؛ وأفضل من تكلم في هذا التسمح في العبارات هو الإمام ابن عطية رحمه الله في مقدمة تفسيره، وهذا من الأمور التي ربما يقولها العالم فلا تجد آخر يقول قوله إلا أن يأخذها عنه، وقد وفق ابن عطية في هذه النقطة فالرجاء العودة إليها؛ وتفسيره من أعظم التفاسير وأجلها. نعود: فإذًا القرآن يقرر أن الله عز وجل تكلم في القرآن بآيات متشابهات، لماذا؟ على معنى ما خلق الله عز وجل من الفتن في الدنيا؛ الفتن المادية من أجل أن تفتن

الناس.. وكذلك جعل هنا آيات لمن يريد الزيغ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ لمَ؟ ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ والسلف إجماعهم قبل حدوث الخلاف كان على أن هذا الوقف واجب.. لا يعلم تأويله إلا الله عز وجل.

فإذًا: المطلوب هو أن نبحث نحن عن المعادلة، عن السر، عن الإكسير الذي به يتم صناعة الصحابي الجليل الذي يعيش القرآن؛ ولكن هنا نقطة: إياك أن تعيش القرآن بما حذر منه القرآن، أولًا: فتنة التأويل وفتنة طلب الزيغ؛ وأنا أجبت في سؤال سابق وبينت بأن البعض يتساءل: كيف يمكن للمرء أن يطلب الهداية ويجاهد ثم يضل؟! أرجو أن تعود إليها؛ فكثير من الناس يذهب إلى القرآن من أجل أن يقرر ما عنده، وأن يبحث عن عقيدته في داخله، لا أن يأخذ منه أخذًا أصليًا..

وأنتم تعلمون حتى في مسائل العقائد.. يعني أعظم القضايا الوجودية هي قضية القدر؛ ومع ذلك اختلف فيها الناس، ووقعوا في فتن، وقالوا أقوالًا شنيعة في حق ربنا سبحانه وتعالى. وكذلك ما يتعلق بأسماء الله وصفاته؛ الناس إذا تحدثوا عن الصفات تحدثوا بفطرتهم كلامًا عظيمًا وجليلًا، ولكن البعض يدخل من أجل أن يقرر معتقده في أسماء الله وصفاته فيُخطئ. فينبغي على المرء أن يتخلص من هذا، هذه فتنة يجب أن نُخلص أذهاننا منها من أجل أن نذهب إلى القرآن ذهابًا صحيحًا.

وكذلك مما حذر منه القرآن عن أناسًا ضالين يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم.

إذًا: القرآن يحتاج ليس فقط إلى قراءة لممارسة مسألة التعبد كقراءة، ولكن ينبغي أن يذهب إلى القرآن من أجل التدبر على معنى التعبد، لا التدبر من أجل أخذ المسائل العلمية فقط، ولكن من أجل أن نتعبد الله فنعلم ما في نفس الرب من معانٍ.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

الحلقة الثانية عشرة:

القرآن وصناعة المسلم الصحابي (٢)

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين:

تكملة لما قلته في الكلمة السابقة: ما هي أفراد المعادلة التي إذا اجتمعت صنعت صحابيًا قرآنيًا في غير عصر الصحابة؟ ونحن هنا نقرر فقط الكلام عن قضية نوع الصفة، أما كمية الصفة فهذا لا يمكن إدراكه؛ «**لو أنفق أحدكم مثل جبل أحد ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه**»، يعني: في هذا الزمن، لو أن المرء أنفق بمقدار جبل أحد نفقة في سبيل الله فلا يدرك ما أنفقه الصحابي رضي الله تعالى عنه في صدر الإسلام بمقدار مده ولا نصيفه؛ جبل أحد لا يقابل مده ولا نصيفه –أي: ما يوضع على رأسه من النصيف، أي المنديل–؛ وهذا –أيها الإخوة الأحبة– تنبيه على أن المتأخر لا يمكن أن يبلغ شأن المتقدم، إلا بحالة واحدة؛ وهي الحب.

وهذا أمر قلبي يجب أن تعتني به؛ الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم –أعماله تقصر أن تبلغ درجة ما يفعله المحبوب، فكيف يبلغ درجته؟ – فقال النبي ﷺ: «**يحشر المرء مع من أحب**». هذا لتعلم أن أعمال القلوب هي أجل الأعمال؛ أجل الأعمال هي أعمال القلوب، فانتبه لها.

فإذا أحببت أبا بكر حبا على المعنى الحقيقي، وأن تتقفى سيرته وأخلاقه وأعماله، من أجل أن تعيش هذه الصورة فتدخل فيها دخولًا إيمانيًا، حينئذ أنت مع من أحببت؛ إذا أحببت عمر على هذا المعنى، إذا أحببت عثمان..، إذا أحببت عليًا..، إذا أحببت أبا عبيدة..، إذا أحببت سعد بن أبي وقاص..؛ هؤلاء العظماء الذين ملأوا الوجود خيرًا وإيمانًا، وأحبهم الله عز وجل.

وإياك –هذا شيء زائد– إياك أن يقع في قلبك شيءٌ على هؤلاء الأولياء؛ فإن المرء إذا وقع في قلبه شيء على هؤلاء الأولياء، حرم من الخير العظيم.

نعود إلى القضية: إذا لا يمكن لك أن تصل إلى مرتبتهم؛ ولكن نحن نريد أن نعيش المعنى ولو في أدنى درجاته مما عاشوه، وأقول: "أدنى درجاته" ليتحقق أنه لو عملنا بعشر ما عمل هؤلاء لنجونا.

وهنا أنبه: البعض يقع في أخطاء –بعض الصالحين وبعض الكتاب المفكرين– يقع منهم أخطاء في هذا الباب، وهو زعمهم أننا نعيش ابتلاءً لم يعشه الصحابة! وهذا يترتب عليه باطل آخر، وهو القول بأننا نحتاج إلى علوم أكثر مما احتاجه الصحابة! وهذا من أكذب الكذب وأبطل الباطل. الذي عاشه الصحابة رضي الله تعالى عنهم

هو إرساء قواعد الحق؛ وأما نحن، فالحق موجود ولكن حصل فيه بعض الخلل، فما نحتاجه إلى ترميم، إلى إصلاح.. وهو الذي يتحدث في معنى التجديد؛ التجديد ليس إنشاء شيء جديد، الشيء الجديد صعب.. ما هو الأصعب: إعادة الخلق أو الخلق ابتداء؟ الخلق ابتداءً أشق، لأن مادة الشيء عند إعادته موجودة، وأما الخلق ابتداء فمادة الشيء غير موجودة. فالصحابة ﷺ عاشوا بلاءً لم ولن يعيشه أحد بعدهم؛ هؤلاء عظماء.. وعلومهم استوعبت كل هذا البلاء؛ ولأن حياتهم كانت أعظم والفتن فيها أشد وأكثر، كانت شخصية النبي ﷺ بينهم. حتى ما عاشه الصحابة بعد النبي ﷺ لا يعادل ما عاشه الصحابة مع النبي ﷺ من البلاء؛ حتى أن أعظم فتنة حدثت بعد وفاته ﷺ ولحوقه بالرفيق الأعلى -وهي فتنة الردة- لا تعادل الفتن التي عاشها الصحابة مع النبي ﷺ، كما عاشوا -مثلًا- في غزوة الخندق؛ فتنة الردة أقل بكثير من فتنة الصحابة في غزوة الخندق.

فالقصد: نبتعد عن هذه المبالغات التي سببها العجز، وسببها الجهل الذي نعيشه، بزعم أننا نحتاج إلى علوم جديدة للخروج مما نحن فيه! مع أن ما نحن فيه من الخيرات الكثير، ولكن لا نستطيع تفعيلها ولا الاستفادة منها.

نعود إلى القضية التي يدور حولها الحديث -وكل هذه لابد منها- أقول: إن القرآن الكريم موجود، ولكن هناك ثمة حواجز تحجب عنا رؤية هذا الكتاب كما هو؛ وربما أذكركم بكلمة سيد في مقدمة تفسيره لسورة الأنعام -أنا أنصح كل طالب علم أن يأتي إلى مقدمة هذه السورة، فإن سيدًا تكلم كلامًا عظيمًا جليلًا مهمًا؛ ومما قاله في التفسير: بأنه في طفولته كان يعيش نوعاً من التذوق الجمالي الذي يأسر هذا الطفل في شبابه وهو يسمع القرآن، قال: ثم فقدت هذا! وقال: ثم وجدت القرآن.. عاد له. طبعًا هذه القضية هي جزء مما نحن فيه؛ القضية أوسع، ولكن لنتحدث عن تجربة البعض في قضية اكتشاف القرآن الذي يصب في نفسه -هذا القرآن- ويسمعه سماعًا جديدًا، ويفعل فيه الأخلاق القرآنية -الأخلاق النبوية- ليكون هناك المسلم الصحابي الفعال، الذي يغير من نفسه، يغير من بيئته، ويصنع تغييراً عظيماً.

فسيد يتحدث أنه كان يعيش في طفولته حالة من الذوق الفطري الأول الذي يتفاعل مع الصورة القرآنية؛ وقال: بعد ذلك انقطعت! ويقول هو: السبب هو تراكم ما يسمى التفسير! بغض النظر الآن لا نريد أن نناقش هذه الكلمة مناقشة علمية دقيقة، وأنا تكلمت لما جئت إلى "معالم في الطريق" بأن سيدًا لا يؤخذ منه العلوم الفقهية الدقيقة، وإنما هو يبني بناء نفسيًا، والبناء النفسي غير الكلام الفقهي.

وهاهنا نقطة: لا نستطيع القول بأن كل التفسير -بالمعنى الاصطلاحي- هو حجاب للقرآن؛ لا، نحتاج إلى التفسير، ولا يمكن أن نفهم القرآن إلا من خلال رحلة المرء مع تفسير القرآن الكريم مما كتبه العلماء، وهناك قضايا جمالية لا يمكن أن يدركها المعاصر إلا من خلال ما قاله المفسرون. والعلوم التي كانت سجية عند سلفنا، اليوم لابد أن تؤخذ عن طريق الاكتساب؛ هناك كانت أشبه بالفطرة لأنها تنشأ معهم من صغرهم، الذوق اللغوي، الفطرة السليمة، التربية التي تنشئها البيئة الصالحة أو التي ينشئها الحدث -يعني الصحابي الذي عاش غزوة

الخندق، الذي عاش سورة الأنفال وعاش غزوة بدر، وعاش أجواء سورة آل عمران وما حدث في غزوة أحد، وكذلك بني النضير في سورة الحشر، التي يسميها ابن عباس رضي الله عنهما يسميها سورة بني النضير؛ فالأحداث التي عاشوها مع القرآن صنعت منهم صناعةً عظيمة.

هنا لابد أن ننظر إلى هذا المعنى الذي يقول عنه سيد: كان على معنى ثم انتقل إلى معنى، تشوشت لديه صورة الجمال التي يعيشها! وهذا ليس من القرآن، هذا من النفس.

عادة -أيها الإخوة الأحبة- لابد من النظر أن الفاعلية لا تقع إلا بقابل وفاعل؛ لابد من وجود صورة جميلة ومرآة جميلة، فلو كانت الصورة جميلة والمرآة قبيحة فالصورة الجميلة لا تظهر في المرآة القبيحة، ولو كانت المرآة جميلة جداً والصورة قبيحة ستظهر الصورة قبيحة، فلابد أن يكون هناك الصورة الجميلة والمرآة الجميلة..

ولا شك أن القرآن عظيم، ولكن الحواجز والمساوئ فينا نحن؛ فيجب أن نزيلها، وليس فقط المقصود في داخلنا، فقد تكون في الخارج. كما نتحدث عن وجود مفسرين مبتدعين، وعن كلام لا علاقة له بإصلاح القرآن للقلوب.

شاه ولي الله الدهلوي حدّث في كيفية يسيرة -هذه ليست أجوبة كاملة على القضية، القضية معقدة وكثيرة الذيول- عندما تحدث ولي الله الدهلوي عن والده: طلب منه أن يقرأ القرآن وكأنه عليه ينزل. هذه كلمة لا تكفي للجواب على الأسئلة لكنها كذلك تخترق الحجب بأنك حين تقرأ القرآن تقرأه من أجل أن ترى نفسك فيه.

من أعظم ما في القرآن أنه يتحدث عن الوجود باعتبار تقسيماته الكلية؛ يعني: عندما يتحدث القرآن في سورة الرحمن عن جنتين: الجنة الأولى وهي جنة عالية، عظيمة، فيها عين جارية وليس ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴿٦٦﴾﴾ نضاختان: يفرزان الماء ولكن قد لا يجري الماء لقلته؛ ولكن الدرجة الأولى هي جنة فيها الماء وهو يجري -وتحدث عن نوع الحور العين بكمالٍ ما جاء في المرتبة الثانية -هو أقل منها- ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴿٧٢﴾﴾ ولكن الدرجة الأولى ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ففرق بين مقصورة وبين هي قاصرة بنفسها، ولا شك أن كلاهما طاهر ولكن لابد من بيان المراتب. المرتبة الأولى عن الجنتين تختلف عن الجنتين ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴿٦٢﴾﴾؛ والأغلب -الجمهور، مع أن بعضهم أظنه الراغب الأصفهاني قال بأن الجنتين المتأخرتين أعظم! ولا يُقبل قوله هذا، وممن ناقشه ابن كثير عليه رحمة الله في تفسير سورة الرحمن.

القصد أن سورة الرحمن ذكرت لنا مرتبتين من الناس، على اعتبار أن المرتبتين في الجنة؛ ولكن السورة التي بعدها -وهي سورة الواقعة- تتحدث عن ثلاث مراتب للخلق.

في سورة التوبة حديث عن المنافقين، وكيف أنهم يملؤون مساحة واسعة من المجتمع وتأثيرًا واسعًا، فيوجدون المؤسسات البديلة كما في مسجد الضرار، ويقومون بعملية تعويق الحق من استهزاء بالإنفاق إن كان قليلًا..

وهكذا حديث طويل عنهم؛ فالقرآن ماذا يصنع؟ القرآن يُدْخِل البشر الذين تراهم في هذه الحياة، يدخل هؤلاء البشر جميعًا في القرآن؛ فلا وجود لأحد خارج القرآن -أي من الوجود والقدر- إلا وله وجود في السورة القرآنية والحكمة القرآنية.

كذلك الأحداث، الأحداث التي يعيشها الناس، كل الأحداث في الوجود، كلها لها سور قرآنية.

ومن هنا أكرر إبطال الكلمة الشريرة التي يزعمها بعض مفكري الإسلام حين يقولون بأن القرآن كتاب عمومات!! القرآن ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ وتجد أن السمات القرآنية للبشر بالتفصيل في الكلمات التي يقولونها، بل ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ يتحدث عن النظرة، كيف يتحرك المؤمن؟ كيف يتحرك الكافر؟ كيف يتحرك المنافق؟ كيف يتحرك المتردد؟ فتكشف السور القرآنية كشفًا تامًا. هذه قضية تتعلق بالحقيقة القرآنية، هذه الحقيقة يجب أن تُجلى، أن تظهر كما هي بينة؛ وهذا يقع -أولًا- عن طريق تجلية الخطاب تجلية صحيحة، لابد أن يصبح لدى المرء ذوق لغوي، ذوق بلاغي، ذوق يتعلق بأسلوب القرآن -أي يتذوق القرآن، ولا يمكن أن يتذوقه دون أن يعرف قواعده ومعانيه- وأضرب لكم مثالًا: لا يمكن لأحد لا يفهم قوانين لعبة ما أن يستلذ بها، لا يمكن؛ وقد جربت هذا في نفسي، وسألت أناسًا كثيرين عن ألعاب فهي لا تعجبهم ويحتقرونها، والسبب أنهم لا يعرفون قواعدها. وأنت حين تأتي إلى لوحة جميلة وتعرف قوانين الجمال في الرسم واللوحة، حينئذ تدرك المغازي والمعاني، أصاب أو أخطأ؟ هذا معنى قوي أو معنى ضعيف؟ وذاك من خلال القواعد؛ وهذا معنى لابد أن ننتبه له.

ومن المعاني التي ينبغي أن نهتم بها، هو أن نتعامل مع القرآن أنه خطاب لنا، أنه خطاب لنا بأن الله يتكلم به -هذه مائدة قرآنية عظيمة- فأنت حين تتعامل مع القرآن أن الله يكلمك، أن الله يتحدث معك.. ومن هنا يأتي الانفعال الذي نراه في قصص المتأثرين بالقرآن..

لما يقسم الله سبحانه وتعالى قسمًا عظيمًا في القرآن، لما يقسم أن الرزق مقدر؛ فيأتي أعرابي يقول: من الذي أغضب الرب، ومن الذي رد على الله، ومن الذي كفر بكلمة الله، حتى أقسم هذا القسم؟! هو نظر إلى متكلم عظيم يقرر حقيقة، فيجب على الناس أن يسلموا، من الذي رد..؟! فالقسم لا يكون -كما يقول الجرجاني في دروسه البلاغية، يقول: إن الخطاب يترقى بحسب نفسية المخاطب؛ فمثلًا: الذي يقبل له خطاب من غير تكرار ومن غير تأكيد، لكن إذا كان هناك ثمة إنكار يأتي التأكيد، طيب إذا كان هناك إنكار شديد؟ يأتي القسم. ومن هنا كثر القسم في الآيات المكية، السور المكية يكثر فيها القسم لأنها حديث عن منكرين فيأتي التأكيد.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

الحلقة الثالثة عشرة:

القرآن وصناعة المسلم الصحابي (٣)

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين مُحَمَّد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين؛ جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم.. آمين آمين.

تكملة في البحث عن أفراد المعادلة لتحقق المسلم الصحابي في كل جيل وفي كل وقت، فكان هناك –فيما تقدم– حديث عن القرآن، وهو حديث قاصر عن بلوغ المرتبة التي نسعى إليها، ولكنها مجرد علامات قليلة ينبغي للمرء أن يهتدي إليها.

وجود شخصية النبي ﷺ التي تحمل حكمة القرآن، هذه قضية مهمة؛ يعني: لا يكفي أن يتحقق القرآن لفظًا من أجل أن يحقق المعاني الكلية التي يريدها، فوجود النبي ﷺ الذي إذا نظر الناس إليه علموا ما هو القرآن، علموا شخصية المؤمن من خلال أعظم نموذج بشري وهو النبي ﷺ –ثم من كان معه من الصحابة رضي الله تعالى عنهم– يقتبسون منه، يجرون منه من أجل أن يعيشوا شخصيته ويعيشوا حياته، ويتعلمون منه أدق التفاصيل للدخول في شخصية النبي ﷺ والاقتراب منه؛ مع حب شديد عظيم له. الحب ليس فقط ما يتحدث عنه أن الحب يعني الاتباع بل يحبونه ﷺ لما يجدون من الخصال التي يحب بها الإنسان؛ ثم بعد ذلك هذا الحب الحقيقي له ﷺ من النظر إلى خصاله الخلقية والخلقية ينشأ الاتباع، الاتباع أمر تالٍ لقضية الحب القلبي والتعلق القلبي بين المحب والمحبوب.

الحديث عن القرآن يعني أولًا أنه لا هداية للأمة إلا بأن تعود إلى القرآن؛ إذا أردت أن ترى تغيرًا في الوجود يجب أن ترى تغيرًا في تعامل الأمة مع القرآن. وأنا في هذا السياق أنبه على أن الناس يعودون للقرآن، أنا أتحدث لكم عن بلد عشت فيه زمنًا طويلًا: كنا إذا أردنا أن نذهب إلى صلاة التراويح فنبحث عن حافظ، فربما في المدينة كاملة لا نجد حافظًا واحداً! أو نجد حافظًا أو حافظين فقط! اليوم –بفضل الله– تجد في المسجد الواحد تجد حفاظًا. كذلك تجد العناية بالقرآن من مؤسسات ومن أفراد وو..، وهذا يدل على تغير في نفس التعامل مع القرآن؛ مع شدة عداء الأعداء له، ومع شدة ما يبذلونه من أموال وينفقونه من قدرات، ويبثون البدائل المفسدة للمعاني القرآنية، من وجود مفسرين ضلال يفسرون القرآن تفسيرًا كفريًا –كما يفعل بعض الزنادقة، وأنتم تعرفونهم، مثل مُحَمَّد شحرور وغيره–؛ فهؤلاء يصدون عن دين الله، ويصدون عن القرآن. وإذا شعروا أن هناك ثمة

اختراق لهذه السدود التي يصنعونها للصد عن القرآن، يصنعون البدائل؛ هذه طرق في التعامل مع القرآن.. ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ هذه طريقة من طرق التعامل، التشويش عليه، وإيجاد البدائل التي يفسرون بها التفسيرات الباطلة. ما دام أنك تريد القرآن.. أولًا لا نريدك أن تذهب إلى القرآن؛ أما وقد ذهبت وقلت: "القرآن"، ورددت العبارات الإيمانية التي ينشئها المشايخ في الخطب والدروس والحياة وفي البيوت والأمهات يعلمنها لأبنائهم وبناتهم، فحيث قلت: أريد القرآن؛ طيب.. تعال ننشئ لك قرآنًا جديدًا.. هم لا يستطيعون أن يفعلوا ما فعلته الأمم السابقة من تحريف الكتاب، فلابد من تحريف معانيه.

فالذي أراه: أن هناك –بفضل الله عز وجل– إقبالًا عظيمًا على القرآن الكريم، على دراسته، على مذاكراته.. ومن راقب الأسئلة التي ينشئها الشباب للبحث عن طرق تفاعلهم مع القرآن، يعرف أن هناك ثمة تساؤل وطلب شديد وشغف لأن يعيشوا القرآن؛ الأسئلة التي تأتي للعبد الفقير: كيف نتفاعل مع القرآن؟ نريد أن نتأثر بالقرآن، نريد أن نبكي إذا قرأنا القرآن.. وأسئلة كثيرة؛ ربما من يتابع الأسئلة والأجوبة يجد مثل هذا السؤال الملّح والشغوف في قضية التفاعل مع القرآن.

إذاً: المعادلة الأولى هي وجود القرآن، وذكرنا شيئًا يسيرًا عن هذا الأمر.

الآن نأتي إلى قضية الشخص، الإنسان الذي يتعامل مع القرآن؛ من خلال التاريخ الإسلامي كله نشأت في داخل الإنسان معوقات للوصول إلى القرآن، وبلا شك أن فتنة خلق القرآن من هذه القضية، وكذلك عزل القرآن عن القضايا العلمية..

أولًا: الزعم بأن هذا القرآن مخلوق وليس هو كلام الله، وهذه وإن كانت بادت بموت المعتزلة وانتصار إمام الأئمة أحمد بن حنبل في فتنة خلق القرآن ضدهم، ولكن تم الاختراق؛ وذلك بدعوى أن هذا القرآن الذين بين أيدينا –كما تقول الأشاعرة– ليس هو كلام الله لفظًا! وإنما هو مخلوق أو من صنع جبريل أو محمد! كما يقول إبراهيم البيجوري في شرحه على جوهرة التوحيد. فهذا اختراق خطير يعطل تفاعل المسلم مع كلمة الله؛ عندما يتعامل المرء مع القرآن أنه كلام الله وأن الله هو الذي تكلم به، أنه كلام الله الذي يصنع تغيرًا في نفس سامعه لمجرد الاستماع –ونحن نرى أن التأثر ينشأ حتى من الذين لا يفهمون معانيه، ومن العوام الذين إذا قرأوه يبكون؛ العوام يتعلقون به لماذا؟ لأنه كلام الله، فيه سر أنه كلام الله عز وجل.. فهذا معوق نشأ في التاريخ وما زال يسري عند بعض الناس.

كذلك من الأمور التي نشأت في هذا الباب، وهو عزل القرآن عن القضايا العلمية الكبرى؛ يعني: عندما تذهب إلى كتب العقائد تجد أن الدليل البرهاني يتعلق بالعقل، ما تعلق بوجود الله لا يجيبون عنه بما يقوله القرآن، ما يتعلق بصفات الله لا يقولون ما يقوله القرآن، يقولون: هذه مسائل عقلية؛ فأخرجوا القرآن من حيز الدلالات، حتى أن بعضهم لا يرى أن القرآن الكريم كافيًا للإجابة عن الأسئلة التي تتعلق بالله عز وجل! فيضعون شروطًا –

كما نرى عند بعضهم- كثيرة من أجل قبول النص اللغوي في دلالته على المراد، كما فعل الرازي.. وهذه في التاريخ لها أثرها ولها جريمتها، وما زال البعض يعيشها.

كذلك عزل القرآن عن القضايا بحيث أنه يجيب عن القضايا الكلية؛ هذه أشرت إليها وهي مهمة جدًا، هل القرآن يجيب عن أسئلة الحياة إجابة تفصيلية تامة؟ الجواب: نعم؛ هذا الوهم الذي صنعه البعض بأن القرآن يجيب الأجوبة العامة ويضع القضايا الكلية العامة دون التفاصيل في حياة المرء، هذا عزل القرآن عن الحياة.

هذه معوقات صارت في أذهاننا، هل نذهب فقط من أجل التدبر، من أجل أن يحصل لنا العظة القرآنية والبكاء والخشية ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، أم نذهب إليه من أجل أن يجيبنا على الأسئلة التفصيلية الدقيقة في كل شيء؟؟؟

من هذه الأمور وجود ما يسمى "تفسير آيات الأحكام"؛ مع أنه علم صحيح ونشأ في ظروف معينة، ولكن -للأسف- أوهم البعض أن هذه الآيات التي أخرجت من القرآن كآيات تتعلق بالمسائل الفقهية، يعني أن بقية الآيات لا تجيب على الأسئلة الفقهية!! وهذا خطأ كبير؛ فآيات القصص هي آيات أحكام، وآيات العظة هي آيات أحكام، والقرآن كله أحكام. ولكن حين ينظر المرء إلى الأحكام على المعنى الظاهر -على المعنى العملي- دون أن ينظر إلى المعنى القلبي، دون أن ينظر إلى المعنى التربوي، دون أن ينظر إلى المعنى الأخلاقي، دون أن ينظر إلى المعنى القدري وكيفية سلوك القدر في البشر وكيفية حدوث الأقدار في البشر؛ هذا من العلم العظيم. فالقرآن كتاب أحكام من أوله إلى آخره، وما من كلمة فيه إلا وفيها دلالات تدل على الحكم؛ يعني عندما يتحدث ابن القيم عليه رحمة الله عن آداب الضيافة ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ ارجعوا إلى ما قاله ابن القيم في آداب الضيافة من هذه الآيات؛ وهي آيات تتحدث عن ممارسة عملية لنبي، لكنها تتحدث عن أدب نبي عظيم كريم -هو كريم، وصفه النبي ﷺ لما سئل عن أكرم الخلق فقال: «**يوسف الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم**» يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فهذه عائلة كريمة- وإبراهيم عليه السلام هو أبو الكرم، هو الذي علم العرب الكرم عليه السلام.

فالقصد من هذا: هذه تطورت... لما الأوائل قالوا بأن العقل هو الذي يقرر العقائد وأخرجوا القرآن من هذا الإطار، وحين يستخدمونه يستخدمونه بشروط وضعوها هم من جهة عقلهم؛ عطلوا فاعلية القرآن في صياغة الإنسان من جهة الإيمان، من جهة الحركة، من جهة الفعل. واليوم القضية التي يعيشها الناس واحدة؛ الذين يزعمون الفكر الآن يتكلمون.. تجد أنهم يأخذون من هنا وهنا، وإذا أتوا إلى الآيات أتوا إليها خجلين، أنها إشارة، ولا يذهبون إلى القرآن ابتداءً! وهذا خطأٌ جسيم وخطير، ويعطل فاعلية القرآن في النفس البشرية، ويعطل فاعلية القرآن في الناس.

ومن ذلك ما ذكرته في كتاب لم أتمه -أو ذهب الكثير منه- وهو "القرآن أولًا"، عندما زعم البعض أنه لا ينبغي ذكر القرآن ثم السنة؛ ولو رجعتم إلى كتاب "الفقيه والمتفقه" للخطيب البغدادي لوجدتم أن الصحابة -كما روي عن عمر وعن غيره- كانوا يدعون إلى الأخذ من القرآن أولًا. لأنها قضية تربوية وعلمية وعقلية، يدلك: اذهب إلى القرآن قبل أن تذهب إلى السنة؛ وهنا يأتي كلام بعض أهل العلم كابن القيم أنه ما من حديث إلا وله أصل في القرآن، وهذا مما قرره الإمام الشاطبي عليه رحمة الله في كتابه "الموافقات"؛ وناقشه بعض المتأخرين خطأً منهم.

لا أريد أن أستطرد في هذا، ولكن أن نذهب إلى القرآن أولًا، لأنه مصدر المعارف، مصدر العلوم، مصدر المعالجة النفسية، مصدر الفقه، مصدر الإجابة على أحداث البشر، مصدر معرفة ما ستؤول إليه الأقدار بنصر المؤمنين وهزيمة الكافرين، مصدر لبناء الشخصية المسلمة الواعية.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، والحمد لله رب العالمين.

الحلقة الرابعة عشرة:

القرآن وصناعة المسلم الصحابي (٤)

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين؛ جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم، آمين آمين.

كان الحديث كله يدور حول المعادلة التي تحقق المسلم الصحابي، وذكرنا أن أهم ركن في هذه المعادلة هو القرآن الكريم، فهو الذي صاغ شخصية الصحابي، وهو الذي فعّل فيه القدرات من أجل خدمة الدين ومن أجل النظر إلى الآخرة.

المقصود بالمسلم الصحابي هو رجل الآخرة، كما وصف الله عز وجل الأنبياء بقوله: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ أخلصهم لهذا الأمر؛ فالمسلم الصحابي هو المسلم الذي يعيش من أجل الآخرة، وحيث تحققت هذه الصفة في رجل فقد تحققت فيه سمة المسلم الصحابي ولحق بالأوائل، ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ و ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ هؤلاء الذين يعيشون من أجل الآخرة.

إن أعظم مفسدة تقع في صفوف المسلمين في فهمهم للدين، هي أن ينظروا لهذا الدين أنه من أجل إسعادهم في الحياة الدنيا فقط. موضوع السعادة في الحياة الدنيا أمر تبعي، ثانوي، ذيلي، كما قال الله عز وجل: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾؛ مع أن نصر الله عز وجل هو نصر لدينه، وفتح قريب هو انتشار الدين وعلو الإيمان، ومع ذلك فهذه الدنيا ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾. الأصل أن المسلم في هذه الدنيا لا نصيب له، ولكن لو وقع هذا –لو لم يكن هناك ثمة نصيب لهذا المؤمن في هذه الدنيا– لصار الناس أمة واحدة، أي: لخرجوا من الدين وتركوا الدين؛ فرحمة بالخلق أجرى الله عز وجل على يد أوليائه بعض المنافع الدنيوية، وإلا فالأصل هو أن يعيش المسلم للآخرة، ومن غير هذه النقطة لا يتحقق معنى الدين الحقيقي، لا يتحقق.

المعادلة التي نحتاجها لتحقيق المسلم الصحابي، المقصود بفاعليته أن يكون عبدًا لله، وأن ينظر إلى رضا الله عز وجل، وأن يسعى إلى سعادة الآخرة؛ وأي مقصد آخر فهو تبعي. وإذا تعارض الأصل مع الفرع يجب إبطال الفرع، لئلا يعود الفرع على الأصل بالإبطال؛ هذه مفسدة لا يجوز للفرع –وهو أمر الدنيا– أن يعود على الدين

والآخرة والإبطال. ولذلك المرء يدفع ماله من أجل الجنة، المرء يضحي بروحه من أجل الجنة، المرء يضحي بوقته من أجل الجنة؛ المقصود هو هذا.

ولذلك: المسلم الصحابي هو الذي يعبد الله عز وجل.

والناس اليوم.. مما يؤسف وأسمع المحدثين يرددونه: عندما يتحدثون عن التعبد، فورًا يقفزون إلى كلمة سيئة –أعتبرها سيئة في مثل هذه المجتمعات التي غاب عنها التعبد الحقيقي– يقفزون إلى التوابع، يقولون: الله خلقنا للعبادة.. وفورًا يقول: ولا تظن أن العبادة فقط هي أن تصوم وأن تصلي وأن تزكي وأن تذكر الله عز وجل..، إنما العبادة أمرها واسع!!! هذه كلمة تنشئ نفسية باطلة؛ إذ الأصل أن يركز على أن يكون العبد لله عز وجل، الأصل أن تتحقق فيه هذه العبادة من أعمال النسك وأن تكون هي الأصل في حياته.. الأصل في حياته أنه يصوم، الأصل في حياته أنه يقوم الليل، الأصل في حياته أنه يزكي، الأصل في حياته أنه يذكر الله كثيرًا «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»؛ وبعد ذلك تأتي التوابع.. هذه هي الأصل تُنشئ أعمالًا تبعية لها.

المشكلة في الخطباء والمدرسين في هذه الأيام أنهم يقفزون إلى ما هو تبعي، فهو يقول: ليس المقصود بالتعبد أن تصلي! وكأن الناس يصلون غير الفريضة وغير الرواتب، كأن الناس –الذين يخاطبهم هذا الخطيب– كأنهم يقومون الليل فيريد أن ينبههم على عبادة فاتتهم؛ أو كأن هؤلاء المصلين الذين أمامه كأنهم يصومون، ومن شأنهم أنهم يصومون الاثنين والخميس، وثلاثة من كل شهر، أو يصومون صيام داود عليه السلام «**يصوم يومًا ويفطر يومًا**»؛ فهو يريد أن ينبههم إلى أمر آخر من أمور الأعمال الصالحة!! والأمر ليس كذلك، الناس في إعراض عن هذا الأمر إلا من رحم الله عز وجل.

يجب أن نغرس في الناس محبة القرآن، أن يقرؤوا القرآن، أن يكون لهم ورد قرآني، أن تكون ألسنتهم دائمة الذكر لله عز وجل، دائمة الذكر هذه أعظم العبادات.

قبل أن تميط الأذى عن الطريق يجب أن تحقق إماطة القذارة من قلبك، وذلك بكثرة الطاعات والصلوات والزكوات وذكر الله عز وجل وقراءة القرآن، يجب أن تميط الأذى عن قلبك أولًا؛ لأن هذه الكلمة "المسلم الصحابي".. هناك مؤسسات تستخدم هذه العبارات –مثل كلمة "فاعلية المسلم"– ويقصدون بها أن يصبح المسلم فاعلًا في مجتمعه على طريقة الإنسان العادي الذي لا بصر ولا تعبد له!! هذا باطل؛ فاعلية المسلم أولًا [عبادة] الله عز وجل –هذه النقطة التي سننطلق منها– أن هناك في المعادلة شق مهم من أجل تحقيق المسلم الصحابي، وهي شخصية النبي ﷺ؛ شخصية النبي ﷺ في مجتمع الصحابي هي ركن مهم في إنشاء المسلم الصحابي الذي تتحقق به الفاعلية في الوجود. وأول فاعلية هي أن يعبد الله، أن يسلم أمره لله، أن يكثر ذكر الله، أن ينظر إليهم فيراهم قوامًا في الليل، أن ينظر إليهم فيرى أنهم يديمون ذكره، أن ينظر إليهم صوامًا، أن ينظر إليهم

وهم يخشونه في أعمال القلوب التي يحبها الله سبحانه وتعالى؛ هذا الذي نريد أن نتحدث عنه، وهو إحدى أفراد المعادلة التي تحقق فاعلية المسلم في أن يكون عبدًا لله عز وجل.

الله عز وجل قال عن النبي ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ٣٣﴾. وهنا لابد من لفتة بيانية في هذه الآية من سورة الأنفال..

قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾، فأتى بالفعل ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾؛ ثم لما ذكر الاستغفار قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾، فأتى بالمصدر؛ ذلك لأن الفعل له انقطاع، وأما المصدر فله الثبوت. فالنبي صلى الله عليه وسلم سيرحل -توفي، التحق بالرفيق الأعلى- فجاء بصيغة الفعل عند ذكره؛ وأما لما جاء إلى الاستغفار فهو دائم، هذا فضل لا ينقطع -التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب فيغلق باب التوبة-؛ فلذلك قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ فأنت ستبقى فيهم إلى مدة ثم ترحل إلى الرفيق الأعلى، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ هذا مصدر يدوم ولا ينقطع حتى الغرغرة -بالنسبة للإنسان قبل الموت- أو طلوع الشمس من المغرب وإغلاق باب التوبة على الخلق.

فالله عز وجل منّ على هؤلاء ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ٣٣﴾، فبقاء النبي ﷺ في هؤلاء الصحابة يمنع.. لأن الله عز وجل منّ على الصحابة ﷺ بتذكيرهم أن رسول الله بينهم، يعيش بينهم، يربيهم؛ ولذلك هذه التربية التي عاشها الصحابة مع النبي ﷺ عادلت مقدار تربيته ﷺ. المربون بعده يأخذون من قبسه، ويأخذون من نوره.. وهذا شيء جزئي؛ أما النبي ﷺ فأتى بالنور التام، فالناس أخذوا منه بمقدار عطائه ﷺ وبمقدار -كذلك- قوتهم. ولذلك قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ انظر إلى هذه التزكية!! هذه التربية عاشها الصحابة بين يدي النبي ﷺ.. التزكية هي تلك العملية التي تحقق بها ترميم النفوس ورفعة النفوس؛ ولذلك الله سبحانه وتعالى ميّز هذا المجتمع بوجود النبي ﷺ، ميّزه بأنه عاش معهم وكانوا يرونه مثالًا.

القرآن كلمات الله عز وجل، فيها القوة، قذيفة؛ كلمات الله عز وجل قوية، روح ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾؛ كل شيء له روح، وروح روح الخلق إنما هو القرآن، روح الروح في الإنسان إنما هو القرآن. من غير هذه الروح للروح التي تعيش في داخل الإنسان، تصبح هذه الروح ميتة، لا حراك فيها، لا حقيقة فيها، لا نور فيها، لا فاعلية فيها؛ ولذلك هذا القرآن روح..

الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن من أجل أن يُتلى، وكان النبي ﷺ هو الذي يحقق لهم المثال من أجل أن يروا الصورة القرآنية تمشي أمامهم؛ كما قالت عائشة ﵂: «**كان خلقه القرآن**».

إذًا: كانت شخصية النبي ﷺ فاعلة ومؤثرة في هذا المجتمع، والله عز وجل جعل من أفعال النبي ﷺ فيهم أنه يزكيهم؛ والتزكية تقوم بعملين:

العمل الأول: إن وجد الانحراف، ردت هذا الانحراف إلى الصواب؛ وهذا شأن نبوي عظيم. كان النبي صلى الله عليه وسلم ينبههم إلى أخطائهم، ويرشدهم إلى ما في أنفسهم من أجل أن يصححوا ما فيها، كقوله صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»؛ قوله ﷺ هذا يريد أن يعيده، يريد أن ينبهه إلى خطئه. «**يا أبا ذر، إنك رجل ضعيف**» ينبهه إلى مقدار قوته، يعينه على ما تصلح نفسه له، فيدرك الصحابي: هذا الباب لا يسلكه لأنه ضعيف فيه، وهذا باب يسلكه.

ولذلك كان ينبه -كذلك- إلى قواهم، إلى هذه القوى التي يعيشها الصحابة، ينبههم: أنت اسلك كذا، وأنت اعمل كذا.. وكان يضع الأمراء الشباب -كأسامة- على صحابة كبار، ويضع عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه على صحابة قد تقدموا؛ لينبه على قوى هؤلاء الأشخاص.

فكانت تزكيته -أولًا- في ترميم هذه النفوس إن أخطأت؛ وأما ثانيًا: فهو دفعها إلى أقصى درجات العطاء وأقصى درجات الفعل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الحلقة الخامسة عشرة:

القرآن وصناعة المسلم الصحابي (٥): الأثر القرآني

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين مُحَمَّد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين.

ما زلنا مع هذا الركن المهم في تكوين الصحابي العظيم الذي ﷺ، وجعلهم قدوة للخلق، وجعل سيرتهم تمثيلًا حقيقيًا لواقع القرآن؛ ﴿۞لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مدح فعلهم الظاهر –أنهم بايعوا– ومدح قلوبهم الطاهرة التي دفعتهم لهذا الأمر، أن قلوبهم صالحة وأن نفوسهم عظيمة.

مع أن القرآن الكريم –بالنسبة لذكر الطاعات– كان يكشف نفوس الصحابة رضي الله تعالى عنهم ليدلل على محبته لهم، ويدلل على رعايته لهم.

ليس مطلوبًا من الإنسان ألا يخطئ، بل جاء في الحديث: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولأتى بأقوام يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم**». أيها الإنسان: ما خلقت إلا لتحقق صفات الله عز وجل في الوجود؛ حيث لا تتحقق هذه الصفات بوجود الملائكة، الملائكة لا يخطئون فلذلك لا يعرفون معنى الاستغفار، ولا يتحقق منهم الذنب فلا تتحقق لهم المغفرة –لأنهم لا يذنبون–؛ ولكنهم يستغفرون للمؤمنين كما في سورة غافر، وكذلك يستغفرون لمن في الأرض كما في سورة الشورى.

فأعظم ما تحققه هو أن تستغفر، ولذلك كانت دعوة الأنبياء دائمًا في بدايتهم طلب الاستغفار؛ واقرأوا سورة هود تجد أن الله عز وجل طلب على لسان هود من قومه أن يستغفروه، وطلب على لسان صالح من قومه أن يستغفروه، والسحرة لما آمنوا ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾؛ فطلب المؤمن هو أن يغفر الله له، فإذا تحقق هذا تحقق الفضل الأعظم.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١﴾ ما هي النتيجة؟ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ النتيجة هي المغفرة؛ فإذا تحققت مغفرة الله للعبد تحقق الخير العظيم.

إذًا: هذا الصحابي شكله تزكية النبي ﷺ؛ ومن هنا.. يعجبني أبو الحسن الندوي في كتابه "صورتان متضادتان" حين كشف –وهذه قضية معلومة ذكرها غيره، حتى ذكرها ابن تيمية.. كأنها هي قضية فطرية– أن الذين يتهمون الصحابة بالزيغ، هم في الحقيقة يتهمون النبي ﷺ؛ لأن هؤلاء هم الذين رباهم النبي ﷺ، فإذا كانت هذه الثلة

العظيمة التي رباها النبي ﷺ قد خانت -كما يزعم الروافض المجرمون-، فهذا يدل على أن المربي لم يحسن التربية، وهذه تهمة للنبي ﷺ.

فالصحابة رضي الله عنهم رباهم النبي ﷺ وزكاهم.. النقطة الأولى التي تحققت بها التزكية -كما ذكرنا في الدرس الفائت- أنه كان يصلح أخطاءهم، ينبههم على ما يقع منهم من أخطاء.. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ ينبههم على قيمة وجود النبي بينهم، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ أي: لوقعت عليكم المشقة.

وهذا أمر عجيب في القرآن؛ الناس يبحثون عن الراحة، يبحثون عن الدعة، يبحثون عن السهولة، والقرآن يقول: إن طاعتكم لأنفسكم في سلوك هذه المسالك التي تظنون أنها تحقق لكم السهولة والراحة، إنما هي عنت ومشقة؛ ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ أي: لأصابتكم المشقة. ولذلك الله عز وجل سمى الجهاد ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ إن تركتم الجهاد دفعتم ضريبة الذل، وكانت شاقة عليكم.

النبي ﷺ منّ الله به على هذه الأمة؛ هو أعظم نبي وأعظم رجل في الوجود، اختاره ربنا سبحانه وتعالى من بين الخلق ليكون أكرم الخلق، واختار له أكرم الأمم ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾؛ هذه الأمة هي أعظم أمة، والذين يحاولون في هذا الزمن سب هذه الأمة بالجملة بأنها أفسد الأمم وأنها أضل الأمم؛ هؤلاء أكذب الخلق.. فاسق هذه الأمة أكرم من طائع غير هذه الأمة، فاسق هذه الأمة أكرم عند الله وأفضل من أكرم من هو خارج هذه الأمة، وجاهل هذه الأمة أعلم وأفضل من أعلم من هو خارج هذه الأمة؛ يكفي أنه يعلم ربه سبحانه وتعالى ويوحده. ولذلك هؤلاء الذين يقولون: هؤلاء الفقراء والمساكين يدخلون الجنة قبل العلماء علماء الفلك وكذا!! هؤلاء لا يقيمون شأناً للإيمان بالله.. علم الإيمان بالله هو أعظم العلوم، العلم بالآخرة -الذي تدركه جدتك، ويدركه العامي- هذا أعظم العلوم، هذا أنجى العلوم، هذا الذي ينفع، هذه الدنيا ستمضي وستنتهي ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾.

فالله عز وجل أكرم هذه الأمة بالنبي ﷺ، وجعله ﷺ في أفضل الأقوام؛ الأمة هذه أفضل الأمم، فاختار أكرم الخلق في هذه الأمة ليصحبوا رسولنا ﷺ.. ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ "أنفسهم": من بينهم، من عشائرهم.. وقد تأتي بمعنى: من أكرمهم. ماذا يفعل هذا النبي؟ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾.

الأمر الثاني في التزكية: وهو قضية دفع الصحابي إلى أعظم العطاء؛ ولذلك أنتم لو راقبتم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لوجدتم أنه يدفعهم إلى أعظم ما يمكن..

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ هذه الآية نزلت فأخذها الصحابي على حقيقتها، فأنفق كل واحد أفضل ما يحب؛ جاء أبو طلحة الأنصاري رضي الله تعالى عنه وكان من أكثر الأنصار مالًا، جاء بأفضل أمواله ووضع المال بين يدي النبي ﷺ. دفعه إلى أعظم ما يمكن..

النبي ﷺ في غزوة تبوك أخرجهم وهم يحتاجون إلى حبة التمر، ينتظرونها منذ سنين؛ ومع ذلك أخرجهم إلى تبوك.. والله عز وجل سمى هذه المعركة "ساعة العسرة"، ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ معركة العسرة امتدت أربعين يومًا ولكن الله سماها ساعة!! لماذا؟؟ لأن العبرة بالقرار؛ العبرة بالقرار والبقية سهل، العمل سهل جدًا ولكن أن تتصارع الإرادتان فتغلب إرادة الحق.. لماذا؟ لتوفيق الله عز وجل.

هذا هو الذي أراد الله عز وجل أن يبينه عندما يُبين حالات ضعف الصحابة في جانب، يريد أن يُبين كرامة هؤلاء القوم عنده بأن حفظهم من المعصية، وأعظم الكرامة هي الاستقامة؛ والكرامة أن يمنعك الله وأن يحوشك عن الوقوع في الشر. ولذلك قال بعد ساعة العسرة: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ هؤلاء الله أحبهم، كادت قلوبهم أن تزيغ، الله منعها.

فهذه تدل على أن البشر يقع منهم صراع الإرادات في نفوسهم، كل واحد من البشر لابد أن يقع عنده صراع الإرادات؛ ولكن ما الذي ينتصر؟ ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ كرامة من الله منعه أن يقع في المعصية، وإلا ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ الصواب أنه همّ بها، أي: وقع في قلبه ما يقع في قلوب الرجال من جهة النساء؛ ولكنه رأى برهان ربه.. هذا فضلٌ إلهي.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾ التوبة هنا هي منع الوقوع في المعصية؛ ليست التوبة فقط في كون العبد يتوب بعد أن يقع في المعصية، ولكن كذلك من توبة الله على العبد وعلى الجماعة أن يمنعهم من الوقوع في المعصية قبل أن تقع.. ولذلك قال الله عز وجل: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ﴾ تاب عليه، لم يقل: "ليتوبوا" لم يقل، لأنه لم تقع منهم المعصية، إنما "تاب الله" منعهم، لم يقل: "ليتوبوا". ولكن بعدها ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ لأن المعصية قد وقعت.

وقال في الحديث عن غزوة أحد كما في سورة آل عمران: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ بيان ما وقع في النفوس؛ ﴿هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ قبيلتان من الأنصار كاد أن يقع منهما الخُلف ﴿أَن تَفْشَلَا﴾، ولكن الله مدحهم.. قال جابر: "ما يسرني إلا أن نزلت هذه الآية فينا" أحب ذلك لقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾؛ يعني: كاد أن يقع الفشل، لكن لأن هؤلاء أولياء لله حال بينهم وبين الوقوع في المعصية.

هذا من رعاية الله لهذا الجيل العظيم؛ وهذا له فائدة فيما سنتحدث، كيف تتحقق التزكية مع غياب النبي صلى الله عليه وسلم؟ ولكن الآن لابد أن نبين أن وجود النبي ﷺ في الصحابة عامل مهم في إنشاء هذا المسلم الصحابي؛ الصحابي رضي الله تعالى عنه كان ينظر إلى عبادة النبي ﷺ.. هذا عجيب!! رجل غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك يقوم حتى تتفطر قدماه!! فتقول عائشة: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «**أفلا أكون عبدا شكورا؟!**». هذا نموذج نبوي تعيشه عائشة وترويه لأصحاب النبي ﷺ.. ويرون قيامه ﷺ، ويرون عبادته؛ عبد الله بن مسعود -هذا الصحابي الجليل المهاجر- يصلي وراء النبي ﷺ، فيفتتح النبي ﷺ سورة البقرة، فانتظر ابن مسعود النبي أن يركع عند المائة، فيكمل النبي ﷺ؛ يقول: يركع عند المائتين، فينهي البقرة ويبدأ بالنساء، وهكذا..؛ قال: حتى هممت بأمر سوء!!! ما هو يا ابن أم عبد؟! قال: أن أجلس وأدعه. قرأ ﷺ -ومعه من يسمع له.. ليست قراءة لنفسه فقط، لو قرأ المرء لنفسه يمكن أن تكون سهلة، لكن أن يكون قارئًا ليسمع مأمومه.. - قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران حتى ركع ﷺ.

وأنبه هنا إلى خصلة عظيمة في أولياء الله عز وجل: هذا الإمام أحمد قال: ما سمعت حديثًا قط إلا وعملت به؛ وأنا أطلب من طالب العلم، وأطلب من العابد، أطلب أن يقتدي بهذه الخصلة العظيمة؛ وهي أن لا يسمع بحديث إلا وأن يعمل به.

النبي ﷺ يرونه عابدًا، ويرونه صاحب خلق.. أنس رضي الله عنه -كما في الصحيحين- يقول عن النبي ﷺ: «**كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وكان أكرم الناس، وكان أشجع الناس**». هذه جمعت كل الخصال في الوجود؛ هو أكرم الناس ﷺ، وهو أشجع الناس، وهو أحسن الناس، أحسن الناس خلقًا ﷺ.

ولذلك كانت شخصية النبي ﷺ التي تستوعب عمل القرآن وحكمة القرآن وأمر القرآن وإرشاد القرآن؛ كانت تعيش هذه الشخصية بين الصحابة وهم يركضون وراءها سعيًا لاقتباس أنوارها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

الحلقة السادسة عشرة:

القرآن وصناعة المسلم الصحابي (٦): الأثر القرآني

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين.

شخصية النبي ﷺ العظيمة المكتملة آية من آيات الله، كانت تحمل ثقل الدعوة، وتحمل آلامًا لا يحملها شخص آخر؛ فالأنبياء أكثر الناس ابتلاء «**أشد الناس بلاء الأنبياء**»، لأنهم يحملون أعظم المهمات، وبالتالي هم أعظم الناس ابتلاءً.

كلما ارتفعت درجة المرء في هذا الدين كلما زاد ابتلاؤه؛ مرتبة العطاء في هذا الدين والرفعة في هذا الدين، ليست ترفعًا، وليست غرورًا، وليست ادعاءً، وليست ألقابًا فارغة؛ الإمامة في هذا الدين تحتاج إلى اليقين الذي يؤدي إلى الثبات، وتحتاج إلى الصبر الذي يؤدي إلى الاندفاع. اليقين وقود العطاء، والصبر هو الوقود الذي يثبتك ويجذّرك على الفعل؛ وهذا يدل على دوام البلاء حتى يلقى العبد ربه.

النبي ﷺ كانت أخلاقه هي أخلاق الإمام، أخلاقه هي أخلاق القدوة؛ ولم يكن النبي ﷺ يدعو إلى مكرمة ويتخلى عنها، لم يكن من صفاته ﷺ أن يرسل أصحابه إلى مهمات ويجلس خلفهم؛ ولذلك كل المهمات الكبرى العظيمة التي عاشها مجتمع الصحابة ﷺ كان النبي ﷺ هو إمامهم. وفي الحديث عن أنس في الصحيحين: «**كان النبي ﷺ أكرم الناس وأشجع الناس وكان أحسن الناس**».

ذكر أنه سمع في المدينة هيعة –صوت عظيم– فخرج الناس يتسمعون، يريدون أن يعرفوا ما شأن هذا الصوت؛ فوجدوا النبي ﷺ قد عاد، قال: «**لا تراعوا**» لا تراعوا إنما هي كذا وكذا؛ ووجدوا النبي ﷺ راكبًا على حصان لأبي طلحة بلا سرج، وقال: «**إني وجدته بحراً**». قالت العرب: لم يوصف الخيل بمثل هذه الصفة قبل أن ينطق بها سيد الأولين والآخرين مُحَمَّد ﷺ.

فإذًا: كان النبي ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر؛ وكان ﷺ أشجع الناس، كما قال علي: كنا إذا اشتد الحدق علينا نلتجئ إلى رسول الله ﷺ... فكان هو الإمام.

كانوا يرون هذه الشخصية فيحاولون محاولة عظيمة أن يصيبوا أخلاقه ﷺ، أن يتمثلوا به في عبادته، في خوفه من الله، في تقواه، في ورعه، في شجاعته، في كرمه، في أخلاقه.

الذي يطلب اليوم هو أن يحترم الناس أئمتهم، والأئمة لا يحترمون أنفسهم!

الإمامة -أن تكون إمامًا- لا تتحقق بالمطالب والخطب؛ لا نرفع قانونًا نقول: عليكم أن تحترموا فلانًا! الإمامة تتحقق بالأخلاق والمثال والقدوة؛ ولذلك كانت شخصية النبي ﷺ هي التي تحقق هذه الفاعلية للمسلم الصحابي.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدًا﴾ انظر إلى هذه المهمات التي عاشها النبي ﷺ وطبقها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدًا﴾ تعرف ما معنى الشهود؟؟ الشهود هو الحضور؛ النبي ﷺ شاهد على كفار قريش، هو شاهد على اليهود، هو شاهد على النصارى، هو شاهد على أصحابه؛ النبي ﷺ كان حاضرًا، لم يكن يجلس بعيدًا مستورًا عن الناس لا يرونه ولا يراهم، بل كان يعيش بينهم، ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾. هؤلاء الذين يبحثون عن الإمامة من خلال الاعتزال، أو من خلال إعطاء صورة الهيبة بعدم الحضور، هؤلاء يصنعون نماذج ميتة؛ والناس يهابونهم مهابة الخوف بسبب السلطان والسجن والعذاب، وليست مهابة الأولياء ولا مهابة الصالحين ولا مهابة الحب.

الصحابة يهابون النبي ﷺ ويحبونه ﷺ؛ ولذلك ذكر أنه إذا طلّ النبي ﷺ لم يكن أحد يجرؤ أن يرفع عينيه إلى وجه النبي ﷺ، إلا أبا بكر وعمر؛ فينظران إليه وينظر إليهما ويبتسمان له ويبتسم لهما ﷺ.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ يمشي، ويتحدث، ويتكلم، ويبين عظائم الأمور: هذه كيف تؤدي إلى الجنة؟ وهذا كيف يؤدي إلى النار؟ وأن الصدق منجاة وأن الكذب مهلكة «**وما يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**»، وكيف أن الغيبة تهلك صاحبها؛ كان يبين ﷺ، ويبشر الطائعين.. ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلۡ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَـٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٤﴾ هذا أمر قرآني، إذا جاءك المؤمن كيف تتعامل معه؟ تتعامل معه بإعطائه البشارة على ما يقوم به من أعمال إيمانية؛ وتعطيه البشارة بالمغفرة إذا قام بالأعمال السيئة فتاب واستغفر؛ هذه مهمة ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلۡ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾.

﴿شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾ تعرف ما معنى السراج؟! ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ لا يتحقق الحق إلا بهاتين الصفتين: طريق معبد موصل للهدف، سهل لا التواء فيه، لا ضلال فيه، كله حق؛ ولكن هذا لا يكفي، لو صنعت طريقًا معبدًا بينًا واضحًا سليمًا معافى ويوصل إلى المطلوب والهدف بأقصر الطرق، وهو الحق في ذاته، لا يكفي؛ لابد أن يكون هناك الأنوار المسلطة على هذا الطريق، من

أجل أن تعينك على الوصول. لذا قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى﴾ طريق موصل إلى الحق؛ وماذا؟ ﴿وَنُورٌ﴾ يكشف لك هذا الطريق ويبينه ويسهل ويبصر الناس إليه. لأنه قد تقع الظلمة على هذا الطريق الحق، الطريق الحق قد تقع عليه الظلمة مع أنه حق في ذاته، فلابد من النور؛ ولذلك الله عز وجل مدح دينه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ لماذا؟! ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ الدين إن لم يكن ظاهرًا على الأديان الأخرى بالقوة وظاهرًا بالعلم، فهو دين ضعيف لا يملك القوة في نفسه.

الله قال: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ شأن النبي ﷺ هو النور؛ شأن النبي ﷺ أنه نور، فبوجوده تنكشف ملمات الطريق، الضلالات، أي ضلالة تظهر يردها النبي ﷺ، أي حق خفي يبينه ويظهره للناس؛ أي كلمة يقولها الناس فيها حق يبين أنها حق ويفرح لها ويحبها ﷺ، وأي كلمة باطلة يكشف ضلالها ويبين إلى أين تؤدي هذه الضلالة.

هذه المهمة العظيمة التي تكفل بها النبي ﷺ لم تكن لتؤتِيَ ثمارها إلا بأرض صالحة لهذا العلم الذي يغرس فيها؛ ولذلك كانت قلوب الصحابة رضي الله عنهم.

هذا القرآن –كما تحدثنا– يعطي عطاء، ولكن إذا أعطى عطاءه لقلب مُجَخٍّ كالكوز، فإنه لا تنزل فيه الهداية؛ وشخصية النبي ﷺ حضرها أكفر الخلق، شخصية النبي ﷺ –هذا النور العظيم، الهادي، الحق المبين– هذه الشخصية حضرها أكفر الخلق وأعند الخلق وأكذب الخلق ولم تهتدِ.

الأنبياء بمقدار نورهم تكون ظلمة أعدائهم..

موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، وجاء في مسند أحمد: أن النبي ﷺ عندما عرج به إلى السماء مر على موسى، فجعل موسى عليه السلام يقول: هذا بعث بعدي وعنده أمة أكثر من أمتي!! فسأل النبي ﷺ جبريل: ما شأن موسى؟! قال: هذا نبي تعودنا منه ذلك. قال ابن تيمية معلقًا على هذه القصة قال: الله عز وجل يحب موسى ويعفو عنه، لما وقف في شجاعة أمام أعتى الخلق في زمانه وهو فرعون..

مقدار قوة إيمان موسى بمقدار ظلمة فرعون؛ مقدار قوة النبي ﷺ ونور النبي ﷺ بمقدار ظلمة أعدائه، بمقدار ظلمة أبي جهل وأبي لهب.. فهم أكفر الخلق، وفرعون هذه الأمة أشد من فرعون موسى.

فهذه الشخصية النبوية العظيمة لم تكن لتحدث آثارها في الوجود لولا وجود هذه القلوب الطيبة التي حوتها صدور الصحابة رضي الله تعالى عنهم؛ فكانت إذا أطلقت الكلمات النورانية تتلقاها هذه القلوب فتغرس فيها غرسًا طيبًا..

كما مدح الله عز وجل هؤلاء القوم بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ذكر مثلهم في التوراة مثال المتعبدين الذين يقومون الليل –العلماء قالوا: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ ذكروا

أقوالًا متعددة، من أجل الأقوال أنه إذا أصبح الصباح رأى الناس في وجوه هؤلاء القوم سيما التعبد والسجود بين يدي الله عز وجل. وهناك أقوالًا أخرى- لأن اليهود قل فيهم التعبد، وكثر فيهم صلابة القلب؛ فذكر مثال الصحابة ﷺ في تعبدهم وإخباتهم وخوفهم وعملهم بالطاعات. ولما جاء إلى ذكر مثلهم في الإنجيل ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ذكر أمر تحالفهم وأمر قوتهم، وكيف تنشأ هذه الزروع الطيبة فتقوى وتلتف حتى تصبح عصية وينصرها الله سبحانه وتعالى.

فكانت هذه الشخصية النبوية ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ النبي ﷺ سراج منير، والنور كلما اشتد وقوي كشف مزالق الطريق وأخطائها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الحلقة السابعة عشر:

ضرورة شخصية النبي ﷺ في الصدر الأول

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين مُحَمَّد بن عبد الله؛ وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين؛ جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم.. آمين آمين.

ربما يقع التساؤل دائمًا: الشخصية النبوية الحاضرة في مجتمع عظيم، في مجتمع الصحابة ﷺ؛ ما الذي يمكن أن يستعيض بدلًا منها في مجتمع آخر؟

أولًا ننبه على قضية مهمة: هناك جانب من الرحمة أن الضعاف لم يعيشوا في زمن النبي ﷺ؛ وقد علم الله ضعفنا فلم يجعلنا في زمانهم، وإلا لكان الابتلاء كاشفًا لأمراضنا وضعفنا.

ينبغي أن نهتم بهذه النقطة، وأن نقف عندها قليلًا..

هناك أناس يتمنون أنهم يقدمون أرواحهم من أجل أن يروا النبي ﷺ، محبةً له؛ ومحبة النبي ﷺ عاملٌ مهم تحقق من خلال شخصيته أولًا.. والله عز وجل نبه لهذا فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

المحبة التي نشأت في قلوب الصحابة، منشؤها عمل النبي ﷺ، ومنشؤها أخلاق النبي ﷺ، ومنشؤها أنه لم ينافسهم في دنيا؛ لو نافسهم في دنياهم لما أحبوه!! والناس إذا تشاجروا على الدنيا كره بعضهم بعضًا؛ لم يروه صلى الله عليه وسلم ينافسهم في شيء من أشياء الدنيا.. وأنتم تعرفون قصته ﷺ في توزيع غنائم حنين؛ وذلك أنه ﷺ جعل الناس -والكثير منهم من مسلمة الفتح- جعلوا يطالبونه بالغنائم، حتى أسقطوا رداءه عنه، فقال: «**ردوا علي ردائي**»؛ وبين لهم ﷺ أن كل ما عنده هو لهم ولن يأخذ منها شيئًا. ولذلك الله عز وجل أكرمه بقوله ﷺ: «**الأنبياء لا يورثون**»؛ ليس هناك من دنيا نافسهم ﷺ عليها، بل كان يعيش للآخرة، ويعيش من أجل أن يحقق النموذج القرآني الذي يحبه الله عز وجل.

فإذًا: المحبة نشأت من خلال أخلاقه. وهذه دعوة لمن يريد أن يحقق محبة الله؛ فإنه إذا أحب الله عبدًا أمر جبريل أن يحبه، ثم نادى جبريل في الملائكة: أن أحبوا فلانًا، ثم يوضع له القبول في الأرض.

لا تتحقق المحبة التي تحصل بها الإمامة ويحصل بها التغيير في هذه الأمة، إلا بأن يكون العبد محبوبًا لله عز وجل.. لا تسأل فقط عن قلوب الصحابة التي أحبت الجمال كله في شخصية النبي ﷺ، ولكن اسأل عن تلك الشخصية التي تحقق فيها الجمال كله؛ هذا هو الأمر، وكلاهما أمرٌ مهم.

فنقول نكرر: إن هذا الجمال كله حقق من الأعداء ما لا يوجد في الوجود قط؛ كان له ﷺ أعداء مجرمون من أشد الأعداء..

فهذا أمرٌ مهم.. فإذًا تحققت محبة النبي ﷺ في قلوب الصحابة من خلال أخلاقه ﷺ.

والله عز وجل رفع هذا المجتمع به ﷺ؛ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ۝٣٣﴾، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾.

السؤال الذي ينشأ: نحن نحب، والكثير منا يزعم ويدعي –والله أعلم بصدق القلوب– ويتمنى أنه رأى النبي ﷺ؛ ولكن علم الله أنك ضعيف، لا تتحقق لك رتبة الصحبة، ولو وجدت لخذلت. ذلك لأن الامتحانات التي عاشها الصحابة ﷺ امتحانات لا توجد في أي مجتمع آخر.. عاش الصحابة ﷺ البلاء العظيم؛ ولو لم يكن هؤلاء الصحابة عظامًا وليس فيهم ضعف في إيمانهم، لخذلتهم قلوبهم من شدة البلاء عليهم.

ولذلك من رحمة الله عز وجل –في جانب– أنك لم تعش هذا الزمان، لئلا تقع مع المنافقين. الآن أنت تتحدث..

وإذا ما خلا الجبان بأرض *** طلب الطعان وحده والنزالا

هو لا يدري، الآن يتكلم.. لكن هل أنت لو كنت مع الصحابة ﷺ في ساعة العسرة، فأين ستكون؟ هل ستخرج؟ هل ستكون مع المخلفين؟ ثم إن كنت من المخلفين، هل ستعترف بالحق أو ستكذب؟ انظر إلى حياتك أنت الآن.. انظر أين أنت.. كم ستقدم؟ وماذا ستفعل؟.

هل أنت إن كنت في غزوة الأحزاب، ماذا سيكون شأنك؟ أين ستكون؟ هل ستقول كما قال المنافقون – نسأل الله العفو والعافية– عندما قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا۝١٢﴾؟ أم ستكون مع طائفة المؤمنين الذين قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾؟ انظر إلى نفسك.. انظر إلى تجارب الحياة.. عندما يُجرب إيمانك في مسائل يسيرة جدًا في هذه الحياة.

فإذًا: السؤال الذي ينبغي أن ينشأ: كيف نحقق ما فاتنا من فوات شخصية النبي ﷺ؟ وعلينا أن ننظر إلى رحمة الله بنا في المقام الذي نحن فيه؛ الله يعلم ما في قلوبنا، ولذلك يمتحنها بمقدار هذا الإيمان؛ وإلا فلو زاد على مقدار الصحابة لبان العوار.

وأنتم تعلمون أن الله سبحانه وتعالى إذا ابتلى العبد ابتلاءً شديدًا، فإنه كلما اشتد البلاء ظهر الضعف؛ كالشيء عندما يوضع تحت الضغط، فإنه ربما يصبر على ١٠٠ كيلو توضع عليه، فإذا وضعت ٢٠٠ كيلو أو وضعت ٣٠٠ كيلو فربما ينكسر.. كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾.

هل أنت تقوم الليل الذي يقويك في النهار "السبح الطويل"؟ هل أنت تذكر الله حتى يقوى إيمانك، من أجل أن تكون صالحًا تقيًا عابدًا عند حضور الفتنة؟ انظر إلى هذه الفتن التي تعيشها الأمة.. أين مقامك أنت؟.

فإذًا المطلوب هو أن نحمد الله عز وجل على ما أعطانا..

وهناك طريق للحوق هذا المجتمع الصحابي، هناك طريق؛ أدلكم عليه: الصحابة ﷺ أنفسهم فرحوا بهذا الطريق الذي بانت فيه رحمة الله بهم. ما هو؟ المحبة.. جاء أعرابي فقال: يا رسول الله، متى تقوم الساعة؟ قال: «**ماذا أعددت لها**»؟ هذا سؤال حكيم، يسمى جواب الحكيم، يدله على ما ينفعه؛ ماذا يضره أن تقوم الساعة بعد لحظات أو أن يموت بعد لحظات؟!! والمرء -كما قيل- إذا مات قامت قيامته. فالرجل سأل: متى تقوم الساعة؟ قال: «**ماذا أعددت لها**» قال: ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله. قال: «**أنت مع من أحببت**». فأنس ﷺ يقول: ما عُلم يوم أفرح من هذا اليوم!! لماذا؟ قال: لأني أحب رسول الله، وأحب أبا بكر وأحب عمر.. لم يصل إلى درجة العمل الذي عمله هؤلاء القوم، ولكنه يحب طريقهم، والمرء يوم القيامة مع من أحب.. هذه رحمة عظيمة.

وأنت بالمحبة الصادقة تبحث أن تشابه هؤلاء القوم.. أنت لا تستطيع أن تصل إلى مقاماتهم وأعمالهم كما قال أنس، ولكنك تحبهم لما يحبهم الله له، وتحب الأعمال الصالحة التي يقومون بها، وتحب المقامات التي وقفوا لها؛ تحب موقف أبي بكر ﷺ في غار حراء، تحب موقف أبي بكر وهو يدافع عن النبي ﷺ في مكة، تحب موقف أبي بكر في الردة التي وقف فيها وقال: والله لو أن الكلاب جرت بأرجل نساء النبي ﷺ لأنفذت بعث أسامة؛ تحب هذه المواقف العظيمة من أبي بكر ﷺ، تحب مواقف عمر العظيمة كذلك.. فأنت تلحق بهم. هذه مرتبة عظيمة، هذا باب عليك أن لا تغلقه؛ "الرجل مع من أحب" هذه مرتبة عليك أن تنتبه لها.

الآن نسأل هذا السؤال الذي ينبغي أن نجاوب عليه جوابًا طويلًا ومهمًا، وهو: ماذا نفعل وقد غابت عنا شخصية النبي ﷺ؟ يمكن الابتداء بقضايا مهمة:

نحن نعلم أن وجود شخصية النبي ﷺ في الوجود مهم، يمكن للمرء أن يقول: إن النبي ﷺ التحق بشخصه بالرفيق الأعلى ولكن بقيت سنته..

ولا شك أن هذا شيء عظيم.. بقاء السنة محفوظة، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ والذكر هو القرآن والسنة؛ السنة محفوظة ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ قال الشافعي: الحكمة هنا أي السنة. القرآن يتلى، فأي شيء من الحكمة يتلى في بيت النبي ﷺ؟ كلام النبي ﷺ.

ولا شك أن شخصية النبي ﷺ فيما يختص بأعماله ويختص بخصاله وأوصافه، قد استوعبتها سنة النبي ﷺ؛ ولكن هذا لا يعني أن الأمر موازٍ.

لماذا كانت شخصية النبي ﷺ ضرورة في الصدر الأول؟ لأنها تمثل المثال.. لابد عند الابتداء أن ترفع المثال؛ النصب الذي يتحقق به رؤية العبد ماذا يريد أن يكون.. فتحقق المثال.

والأمر المهم الثاني: أن شخصية النبي ﷺ كانت مهمة، لأن المهمات التي تحققت في زمن النبي ﷺ كانت عظيمة؛ ولا يمكن أن يكون هناك ما يشبهها شبهًا تامًا. مثال ذلك:

لا يوجد معركة يمكن أن يتحقق فيها قوله ﷺ: «**إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض**»، هذه خاصة لأهل بدر؛ وأقرب الشبه لمعركة بدر في دخولها دخولًا جزئيًا –كبيرًا ولكن ليس تامًا– في تحقق قوله ﷺ: «**إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض**» هي حروب المرتدين. في حروب المرتدين كانت المحنة عظيمة، وتشابه هذه القضية فيما لو انتصرت الردة لذهب الإسلام، ولكن ليست على المعنى الكلي الذي كان في بدر..

فكانت شخصية النبي ﷺ ترسي القواعد الأولى، وتجابه المهمات العظمى؛ وأما بعد النبي ﷺ فالمهمات جزئية. الذي أرسى قواعد الإسلام –أنا لا أتكلم عن العلوم، هذه قضية مهمة؛ ولكن نتكلم عن وجود الإسلام، عن وجود الإسلام عمليًا، عن وجود الإسلام في أشخاصه، في أمته، في دولته، في إمامته– الذي أرساها هو النبي ﷺ؛ فكانت المهمة عظيمة في إنشاء القواعد.. وأما ما بعد النبي ﷺ، فإنما هي متممات لهذه القواعد، ارتفاع جدران على هذه القواعد.

وبالتالي: كانت شخصية النبي ﷺ ضرورة، ضرورة لتجابه المهمات العظمى التي يحتاجها ذلك الوقت؛ وأما بعد ذلك، فكل الحروب.. لو هزم المسلمون في معركة فهناك عمق جغرافي..

في الوقت الذي سقطت فيه الأندلس –انظر! بلاد مسلمة عظيمة، وواسعة– الأندلس التي تسمى اليوم "إسبانيا"، هذه البلاد في الوقت الذي سقطت فيه فتح الله عز وجل للمسلمين الأناضول، دخل محمد الفاتح القسطنطينية. بمعنى: أنه يمكن أن تهزم الأمة في مكان وتنتصر في مكان آخر؛ وهذا لم يكن في زمان النبي صلى الله عليه وسلم.

وبالتالي: لا تقل بأن عدم وجود النبي ﷺ في الزمن المتأخر يمنع من قيامك بالمهمات العظمى؛ مهمات الأمة والعلماء والقادة بعد النبي ﷺ جزئية.

فلذلك النبي ﷺ كانت مهماته كلية في بداية الأمر، فاحتاج الأمر إلى شخصه ﷺ؛ وأما ما بعده فيمكن لعالم -في مسألة العلم- يمكن لعالم أن يغفل عن علم فيأتي عالمٌ آخر فينبه عليه، بخلاف شخصية النبي ﷺ، لو غاب العلم -وهذا غير متصور، ولا يجوز، ولا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة- لو غاب هذا العلم عن شخص النبي ﷺ فلا تتعلمه الأمة كلها بعد ذلك، بخلاف العلماء الذين أخذوا من قبس النبي ﷺ ومن نور النبي ﷺ.. فكانت شخصية النبي ﷺ مهمة في أكثر من أي وقت مضى في الأزمنة التالية.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

الحلقة الثامنة عشر:

رعاية الله للأمة بعد وفاة النبي ﷺ

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين؛ جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم، آمين آمين.

كيف جرت سنة الله عز وجل مع هذه الأمة بعد وفاة النبي ﷺ؟ كان وجوده رحمة، ووجوده عصمة، بل وجوده عطاء؛ وهذا مما لا شك فيه. ثم قبض النبي ﷺ، ومن سعادة هذه الأمة أن قبض النبي ﷺ بين يديها، كما في الحديث: «**إذا أراد الله بأمة خيرًا قبض نبيها بين يديها**»، وإذا أراد الله بقوم شرًا قبضهم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم؛ يعني: عذبهم والنبي ينظر إليهم. ولذلك من رحمة الله عز وجل بهذه الأمة أن قبض النبي صلى الله عليه وسلم بين يديها، وبقيت هذه الأمة على خير.

والنبي ﷺ ترك هذه الأمة وهو فرح ﷺ؛ فإنه ﷺ في يوم وفاته، بعد أن تعب ﷺ ولم يستطع الخروج إلى الصلاة، فصلى بهم أبو بكر رضي الله تعالى عنهم؛ فإنه خرج عليهم ﷺ وقد كشف الستار بينه وبينهم، ونظر الصحابة رضي الله تعالى عنهم إلى وجهه وفرحوا حتى كادوا أن يفتنوا في صلاتهم، فنظر إليهم وابتسم؛ ذلك لأنه تركهم ﷺ كما أحب، تركهم وهم قائمون بالصلاة.. هذه أعظم خصلة في هذه الأمة، ولذلك كانت آخر وصاياه «**الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم**» ﷺ.

فكيف جرت سنة الله عز وجل في تدبير هذه الأمة بعد وفاته؟؟ كان وجوده ﷺ رحمة، وكان عصمة، كان عطاءً، وكذلك كان منعًا من الوقوع في الشرور: يحوشهم ﷺ، ينبههم، يهديهم إلى أقوم أمرهم؛ وهم يستجيبون، يطيرون سراعًا إلى ما يأمر به ﷺ.. وهذا كان يحبه ﷺ في هذه الأمة.. تركها على المحجة البيضاء.. خطب خطبته الشهيرة ﷺ في حجة الوداع -هذه الخطبة التي لا نعرف قيمتها، بل يعرف قيمتها من عاشوا في الأمم الأخرى- «**أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب**»، هذه قاعدة لو أن العالم مشى عليها لما طغت أمة على أمة باعتبار الأصل وباعتبار اللون وباعتبار النسب وباعتبار العشيرة.

المهم أيها الإخوة الأحبة.. ما أريد أن أنبه عليه: كيف جرت سنة الله في رعاية هذه الأمة بعد قبض النبي ﷺ؟ كان النبي ﷺ هو الذي يحقق عصمة الأمة في مجموعها من وقوعها في الخطأ.

أولًا: جرت سنة الله أن لا تجتمع هذه الأمة على خطأ؛ «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق**» انتبه!! هذا أمر قدري، هذه رحمة إلهية؛ غاب النبي ﷺ فبقي الأمر القدري الذي يتحقق بوجود النبي ﷺ في هذه الأمة.

هذا يوجب علينا الحمد والثناء على ربنا سبحانه وتعالى، ويوجب علينا أن نعلم قيمة هذه الأمة في نفس ربنا سبحانه وتعالى.

«**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بالحق لا يضرها من خذلها ولا من خالفها حتى يأتي أمر الله**» إذًا الأمر القدري: رعاية الله لهذه الأمة بأن لا تجتمع على خطأ. وربما نرى -في أوقات- الأكثرية يعاندون، فيأتي الحق أبلج؛ وما أن يأتي الحق حتى تهتدي الأمة إليه وتُقبل إليه سراعًا.

هذا الأمر الأول أن الأمة لا تجتمع على خطأ؛ كما رأينا في حروب الردة، هذه الحروب التي كادت أن تجتث الإسلام. بعد وفاة النبي ﷺ الله سبحانه وتعالى يقيم الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه، من أجل أن يحقق عصمة هذه الأمة من الوقوع في الخطأ، وأن لا توافق ولا تتنازل عن الحق؛ وكان رضي الله تعالى عنه -كما ذكر في التواريخ كتاريخ الطبري- كانت تأتيه الأخبار بكثرة القتلى في أصحاب النبي ﷺ، فلا يزيد عن: اقبلوا، ويدفع الرجال إلى مقاتلة المرتدين؛ حتى تحقق النصر. وما أن انتهت الردة حتى حرضهم وجمع الجيوش وأرسلها أوزاعًا إلى بلاد الشام والعراق؛ رضي الله تعالى عنه.

فإذًا: الأمر العظيم في هذه الأمة أن الله عصمها أن تجتمع على الخطأ؛ فوجود الحق فيها هذه رعاية إلهية، هذا خاص.. لا يعني أن النبي ﷺ قد ذهب، فعند عدم وجوده يمكن أن يجتمعوا على خطأ، لا لا.. هذه من رحمة الله عز وجل. ولذلك قال العلماء -حتى في مسائل العلم- أنه لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة، أن الأمة لن تخلو من وجود مجتهد، أن الأمة لن تخلو من وجود أهل الحق فيها؛ وهذا أمر مهمٌ جدًا.

وأما الاختلاف؛ فهذا أمر قدري يوجد في كل الأمم، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾. هذا الأمر -وهو الخلاف في هذه الأمة- هذا أمر لن تخلو منه أمة من الأمم، وهذه فتنة في الخلق؛ ولا يظنن ظان أن زمن النبي ﷺ عُدم من وجود الخلاف، بل وجد الخلاف، ولكن وجود النبي ﷺ كان يظهر الحق، فالناس يؤوبون إليه، والمنافقون يعرضون عنه ويستهزئون به ويعارضونه، حتى يظهر الحق في المآل؛ وجود النبي ﷺ -الذي غاب- تحقق به هذا الحق.

هذا الذي وصفنا من وجود الخلاف، ثم ظهور الحق، وإياب أهل الدين والإيمان ما أن تتلى عليهم الآيات ويُبين لهم الحق.. كما قال عمر ﷺ في قضية جمع القرآن: ما رأيت حتى شرح الله صدر أبي بكر فعلمت أنه الحق. وفي حروب الردة عندما تُلي الحق على نفس عمر ﷺ وسمعها من أبي بكر -والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة- علم الحق في قلبه؛ وهكذا ما أن يظهر الحق حتى تؤوب القلوب المؤمنة إليه.. هذا أمر قدري مهم.

الأمر الآخر الذي رعى الله عز وجل به هذه الأمة: أنه سبحانه وتعالى وسع دائرة هذه الأمة في كل مكان؛ نشرها، هذا الدين انتشر في كل مكان.. ولذلك بهذا العمق الذي يسمى بالعمق الاستراتيجي لن تستأصل هذه الأمة.

كان الصحابة يعيشون في المدينة في وسط كافر يطبق عليهم من كل جانب؛ ولكن الأمة الآن متسعة، الأمة لا تستأصل. ولذاك أنتم تجدون أن الحق بالنسبة للمناطق يتعدد.. لما ضعف شأن المدينة بخروج علي رضي الله تعالى عنه إلى العراق، الله عز وجل أظهر الشام، أظهر العراق، أظهر مصر؛ فلا يضعف الدين في مكان حتى يظهر في مكان آخر. رأينا كيف انتشر الحديث في مكان، وكيف صار قويًا في مكان، ثم انتقل إلى مكان آخر، ضعف في مكان وعاد إلى مكان آخر.

الأرض قد تسقط، والناس قد يتغيرون، ولكنه بعد ذلك يكون الحق ظاهرًا في مكان آخر. نحن علمنا أن الأندلس قد خسرناها، علمنا أن أصفهان التي كانت تقارن ببغداد في الحديث.. كانت أصفهان لكثرة المحدثين فيها -وقد ألفت كتب في طبقات العلماء في أصبهان- أصبهان أو أصفهان، لأن الكلمة في الفارسية مشكلة في حرف "ف"، لا يوجد في لغة العرب فتنطق بالباء وتنطق بالفاء.. فأصفهان هذه كانت حاضرة الإسلام، وكان شأنها شأن بغداد في الحديث والعلماء والفقهاء؛ ومع ذلك قامت الدولة الصفوية فقتلت أهل السنة، وأغلقت مدارسهم، وأجبرت الناس على التحول إلى الرفض، والآن أصفهان أهل رفض؛ وربما يخرج منها أعوان الدجال، اليهود يهود أصفهان. ولكن هل بذهاب أصفهان ضعف الإسلام، أم أننا نجد أن هذا الإسلام يمتد في جهة أخرى؟ هذه من الأمور القدرية التي رعى الله عز وجل بها هذه الأمة.

الأمر الثالث الذي رأيناه في رعاية الله عز وجل لهذه الأمة بعد غياب النبي ﷺ ورفعه: أن الله سبحانه وتعالى يعالج هذه الأمة بالقدر؛ يعالجها بالقدر.

النبي ﷺ كان يعلم هذه الأمة بالخطاب -بالكلمة- فيرتدعون، وإذا وُجد منهم شيء من الكراهية لما يخبرهم به من الحق تؤوب قلوبهم إلى الفعل. رأينا عمر رضي الله عنه في صلح الحديبية كيف أنكر الصلح ورآه مُذهباً لعزة الإيمان "كيف نعطيهم الدنية في ديننا؟!! ألم يعدنا رسول الله كذا؟!! "؛ ولما أمر النبي ﷺ أن يحلقوا رؤوسهم ويحلوا من الإحرام، قام الصحابة رضي الله عنهم -بعد أن فعلها النبي ﷺ بمشورة أم سلمة- قام الصحابة يحلق بعضهم لبعض بشدة، حتى جرح بعضهم بعضًا وأدمى بعضهم بعضًا؛ ولكنهم في النهاية يؤوبون.

هذه الأمة لو أنها وعظت بالحق فلم تتعظ، ماذا يقوم؟ يقوم الفعل القدري بتأديبها؛ وهذا من رحمة الله لها.

الناس يبكون الآلام التي تقع في هذه الأمة.. لما ضعفت الأمة وتخلخلت، والخلافة أصابها ما أصابها، ودخل الرفض –البساسيري دخل بغداد وطرد الخليفة إلى كفرعانة، فخرج الخليفة وصار أمر المسلمين في هوان– جاء الصليبيون أدبوا هذه الأمة.. التتار بعد ذلك جاءوا وأدبوا هذه الأمة.

التأديب الرباني القدري لهذه الأمة ماذا يعني؟؟ أن تستفز الأمة لإيمانها؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ فكل نبي له عدو، ما هي مهمة هذا العدو؟ مهمة العدو أن يستفز الحق في نفسك. الناس ينظرون إلى الأقدار أنها عذاب، ليست كذلك؛ هي من جهة عذاب، ولكنها بالنسبة لهذه الأمة كشأن الطاعون؛ الطاعون ليس عذابًا لهذه الأمة، الطاعون رحمة، المرض رحمة.

الله عز وجل جعل الأقدار التي فيها الابتلاء لهذه الأمة رحمةً لها؛ فوجود الأعداء الذين يؤدبون هذه الأمة إذا حادت –في أغلبها– وغيرت وبدلت، يأتي الأعداء لتأديبها، من أجل أن يستفز الإيمان في صدورهم. ولذلك ما ترونه من التغير، هذا من رحمة الله.. أنتم ترون أن الابتلاءات الربانية ما الذي تحقق في هذه الأمة؟ تحقق أسواق الجهاد، تحقق أسواق الطاعات..

البدعة حين تنشأ، ماذا يحقق الله عز وجل أمامها؟ لأن الأمة معصومة من الخطأ، يقوم العلماء ببيانها والرد عليها؛ يقوم سوق إيماني جهادي علمي في بيان البدعة والرد عليها. كما كان من شأن الإمام أحمد في مسألة خلق القرآن.. وفي قضايا متعددة، تاريخ هذا، وفي كل وقت.. الله يقيم أهل البدع من أجل أن يستفز أهل الحق ليقوموا بالرد عليها.. كذلك إذا جاء الأعداء وتكالبوا، رأينا أسواقًا إيمانية.

الناس يرون أن هذا البلاء يؤدي إلى القتل، والناس يرون أن الموت مصيبة!! والموت عالجه القرآن أنه في النهاية سيصيبهم ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ الله عز وجل عالج قضية الموت، انتهى منها، كما رأينا في سورة النساء، وكما رأينا في سورة آل عمران؛ عولجت قضية الموت وأنها قضية قدرية لا يمكن أن تتغير أو تتبدل، لا يوجد أحد يموت قبل أوانه، لا يوجد.

فإذًا: هذا البلاء الذي يقع، من أجل أن تُستفز الأمة؛ نرى أن الله يؤدب هذه الأمة بأعدائها من أجل أن تتوب، ومن أجل أن يُظهر عظمة الإيمان في صدور هذه الأمة؛ نرى مواطن الجهاد العجيبة، لولا وجود الجهاد كيف نرى هذه الشجاعة؟ كيف نرى هذه التضحية؟ كيف نرى رفعة الأمة؟ كيف نرى انتشار الحق؟!. أنتم ترون في هذا الزمن: لا أحد يقف أمام الطاغوت الأكبر والشر العظيم إلا فتية مؤمنة؛ ونرى أن الحق ينتشر.. نرى علماء يسجنون، علماء يقتلون.. ونرى شبابًا يجاهدون؛ لماذا هذا؟؟ هذا من بلاء الله عز وجل بوجود الأعداء من أجل أن يُظهر الله الحق.

الله عز وجل يعالج أخطاء هذه الأمة بالبلاء، من أجل أن يظهر ما يحب فيهم؛ وهذا أمر ينبغي أن يُفهم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

الحلقة التاسعة عشرة:

الاعتكاف

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين؛ جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم، آمين آمين.

أيها الإخوة الأحبة: ها هو رمضان يفلت من بين أيدي الناس، فأدركوه بالطاعات، والحقوه بكثرة الإنابة وفعل الخيرات.

ومما يؤسف له أن الناس في رمضان يقبلون في بدايته على أشُدهم في القيام والعبادة، ثم إذا قارب أخذ الأجرة وبلوغ المقام النهائي ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، يبدأ الكسل والضعف! والأصل أنه إذا قاربت النهايات شدت الخيول، إذا قاربت النهايات وضع الناس كل جهودهم من أجل أن يدركوا المقامات العليا؛ ودائمًا للبدايات مشقاتها وللنهايات جمالاتها، ونهاية الجمالات أهم بكثير من مشقات البدايات. ذاك لما وصف النبي ﷺ أنه اللبنة الأخيرة في بناء النبوة العظيم، «**مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا إلا موضع لبنة**..» فجعل الناس يدخلون على البيت ويصفون جماله إلا هذه اللبنة، قال: «**وأنا هذه اللبنة**»؛ وخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وخاتم الشيء هو أعظمه وأجله.

ولذلك رمضان كله عظيم، وفي كل يوم لله عز وجل فيه عتقاء؛ وآخره هو أعظمه، العشر الأواخر هي أعظم هذا الشهر، وفيها ليلة القدر، التي قال الله عز وجل فيها: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ۝ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ۝ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ۝ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ۝﴾. وهذه العشر الأواخر قد أزف دخولها، ولابد من أن يشد الناس سروجهم وخيولهم من أجل بلوغ ما يحبه الله عز وجل.

والناس عليهم أن ينتبهوا إلى أن الطاعة تأتي بالطاعة، ومن دلالة قبول الطاعة أن يكرمك الله عز وجل لطاعة تالية لها، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ فبالهداية تزداد الهداية. واعلم أنك إذا حرمت بعدها طاعة، فإن هذا يدل على أنها لم تقبل ولم تقم بها على وجهها ولم تكن من أهل هذه الطاعة؛ لابد من دخولك في الطاعة دخولًا كليًا بأن تصبح سمة لك هذه الطاعة.. ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ هؤلاء لم يذكروا الله يومًا

ويتركون ذلك أيامًا، هذه صفة التصقت بهم؛ قراءة القرآن صفة التصقت بهم.. سئلت عائشة عن عمل النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: كان عمله ديمة وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق؟!.

ولذلك في هذه الأيام علينا أن نشد، علينا أن ندرك ما فاتنا في هذه الشهر؛ فلتت أيامه من بين أيدينا من تقصير وغفلة وضياع أوقات، وربما هناك الشيء العظيم الذي ينتظرك وقد فاتك، وبقيت هذه الأيام لتثبت خيرها ولتثبت فضلها ولتثبت قيامك على وجهها. فإذا تأخر الشرط لم يقع الوعد؛ الوعود الإلهية بمغفرة الذنوب وحصول الكرامة ودخول باب الريان، لا بد فيها من الإتيان بالشروط.. فهذه الأيام المباركة عليك أن تهتم لها، أن تكثر من ذكر الله.

ولذلك يشرع في هذه العشر الأواخر من رمضان الاعتكاف..

النبي ﷺ كان أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، كالريح المرسلة لا يبقي شيئًا؛ ولكن إذا دخلت العشر شد المئزر، وأيقظ أهله، وقام الليل كله، لأنها الأيام التي تعطى فيها الأجور. والمرء يعمل.. فإذا ترك آخر الوقت لم يحصل له الأجر؛ وضرب ذلك مثلاً النبي ﷺ في عمل اليهود والنصارى، أنهم عملوا ولكن لم يعملوا إلى نهاية اليوم ففاتتهم الأجور!! ثم جاءت هذه الأمة في آخر هذه الأوقات من حياة البشرية، فأدركوا أجور الأوائل والأواخر. العمل في آخره به تحصل الأجور العظيمة..

ولذلك لا بد من أن تهيئ نفسك بقيامك في هذا الشهر -في آخره- على خير ما يكون؛ لا تنشغل بدنياك، الناس ينشغلون في هذه الأيام بالتزيين، وينشغلون بشراء الأغراض، وينشغلون بالمتع، تحضيرًا منهم لأيام العيد أو ما شابه ذلك؛ ولكن المؤمن ينتظر إلى رحمة الله إلى "يوم الجائزة"، كما سماه بذلك بعض أهل العلم، هذه أيام الجائزة قادمة..

ولذلك في هذه العشر الأواخر أنصح إخواني بالاعتكاف؛ وهنيئًا لمن كان معتكفه في الرباط في سبيل الله، هنيئا لمن كان معتكفه في طاعة الله عز وجل، قائمًا لله عز وجل يدافع عن أعراض المسلمين وينصر دين الله عز وجل. فمن فاته هذا المقام من الأربطة عليه أن يرابط ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ ومن الرباط القيام في المسجد. العشر الأواخر هذه عليك أن تغتنمها، وذلك من أجل الاعتكاف؛ ماذا يعني الاعتكاف؟؟ الاعتكاف من أجل أن تفرغ نفسك كليًا من أجل طاعة الله عز وجل.. ولذلك كان النبي ﷺ يقوم الليل كله -لم يثبت عنه ﷺ أنه قام ليلة بكاملها إلا في العشر الأواخر من رمضان- كان يقوم لياليها -هذه العشر- كلها.. فعليك أن تغتنم هذا.

ومن فضائل هذه الأيام أنها تفرغك من الدنيا في الاعتكاف.. ولذلك الذي يُنصح به في هذا الاعتكاف هو: أن لا تعتكف إلا بعيدًا عمن يضيع دينك بكثرة الكلام و"السواليف"، وجاء فقط من أجل أن ينقل الدنيا إلى

المسجد. دخول الاعتكاف يعني ترك الدنيا خارج المسجد، وليس أن ترحل بهذه الدنيا معك إلى المسجد؛ في ضياع الأوقات، وكثرة الهموم الدنيوية، وكثرة النقاشات التي لا تسمن ولا تغني من جوع!! هذه أيام ليست إلا للعبادة.. البعض يقول: أريد أن آخذ كتب العلم!! معك أحد عشر شهرًا من أجل أن تطلب العلم؛ هذا وقت العبادة، هذا وقت أن تنصب قدميك لله عز وجل مصليًا، قارئًا للقرآن، ذاكرًا، باكيًا على ذنبك، خاليًا لقلبك من أجل أن تخليه –هذا القلب– من أي هموم إلا النظر إلى رضا الله عز وجل من أجل أن يتحقق الخير.

فلذلك أيها الأخ الحبيب: اقبل على طاعة الله عز وجل في هذه الأيام المبارك، واعلم أنها إذا فاتتك فاتك خير عظيم.

إذا كنت لا تستطيع الاعتكاف –وإن كان ينصح بالاعتكاف لكل مسلم، ويمكن للمسلم أن يفعلها مهما كان شأنه، لكن للناس أحوال وظروف– فإياك أن تضيع قيام ليلة القدر؛ لا تنظر إلى ما يفعله الناس من محاولة تعيينها ليقوموا ليلة واحدة!! لا، بل عليك أن تغتنمها –وأنها في العشر الأواخر من رمضان وفي الفرد منها– أن تقوم ليلها..

وهذا الليلة تسمى إحياء ليلة، تعرف ما معنى "إحياء"؟ أن تكون فيها الحياة؛ فما نراه في بعض بلاد المسلمين –وليس في كلها– أنهم يحيونها بمعنى أنهم يسهرون ولا ينامون! أين؟ ينقلون الدنيا إلى المسجد.. يكثرون من الخطب والدروس، وتتنوع المواعظ، والصلاة تكون قليلة –نصف ساعة!! – هذا ليس إحياءً.. أين روح هذه الليلة؟! دعكم من هذا، الدروس تكون في أيام أخرى.. يكثرون الأطعمة؛ يحضرون الأطعمة قبل ساعتين أو ثلاث من الفجر، وينشغلون بالطعام والكرم فيه!! هذا ليس وقته.. هذه ليلة من أجل عبادة الله عز وجل.

أحيوها ببث الروح فيها.. وروح الليالي هو قيامها، وأعظم القيام فيها أن تنصب قدميك مصليًا لله سبحانه وتعالى، داعيًا، مستغفرًا، ذاكرًا؛ هذه ليلة لا يحييها فقط بأن تسهر فيها، وأن تضيعها في شؤون الدنيا وفي الكلام الذي يجري على ألسنة الناس في بقية العام. لا، هذه ليلة القرآن، هذه ليلة الصلاة، هذه ليلة الاستغفار، هذه ليلة العبادة؛ فعليك أن تهتم بهذا ولا تضيع هذه الليلة، لأنها من أيام الغنائم والأسواق الإيمانية التي لو فاتتك والله لن تدركها. كل يوم يصدر على الناس ينادي: أنا يوم جديد، على عملك شهيد، تزود مني قبل أن لا أعود إليك إلى يوم القيامة.

اللهم اغفر لنا ولكم، والحمد لله رب العالمين.

الحلقة العشرون:

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ٢٦﴾

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين؛ جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم، آمين آمين.

المرء الآن بعد مضي هذه الأيام، ويكاد شهر رمضان أن ينتهي وأن تذهب خيراته وبركاته؛ ربما يشعر بآثار عظيمة على قلبه، من آثار الصيام، آثار القيام، آثار قراءة القرآن؛ لا شك أن هذه الأيام أثرت فيه وقومته، وأقبلت به على الله عز وجل وعلى الدار الآخرة، وصار حديث القرآن هو الذي يغلب على قلبه، وصارت أخبار القرآن وأخبار الغيب هي التي تستحوذ على نفسه. فلذلك هذه التربية القرآنية الرمضانية، على المرء أن يستغلها وأن يحسن استثمارها فيما بعد رمضان..

أولًا: علينا أن نعلم أن هذه الأيام تمر علينا بسرعة، ولذلك علينا أن نُقبل على الله بشدة؛ علينا أن نركض إلى ربنا سبحانه وتعالى، أن نفر إليه.

النهايات تعني أن العطاء الإلهي والكرم الإلهي سيكون كبيرًا؛ كما أنه في كل يوم عند الإفطار للمرء المؤمن الصائم له دعوة مستجابة، لأن الخيرات تتجمع هنا –تأتي الطاعات، الاستغفار، قراءة القرآن– ختمت وتجمعت كلها وتدافعت عند اللحظة الأخيرة، عند الإفطار. فلذلك الله يفرح بالعبد أنه استجاب له، أنه صام، ترك شهوته –طعامه، شرابه، جماعه لأهله– ترك كل هذا؛ فالله يقبل عليه، يفرح الله «**للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه**» ولا شك أن النهايات لها أهميتها؛ ففي كل يوم للعبد دعوة مستجابة عند فطره، على المرء أن يستغلها؛ فهذا دليل على أن النهايات لها قيمتها.

كذلك الآن، الشهر يمضي والمرء عليه أن يستغل ما فاته من هذا الشهر؛ كان السلف في أواخر هذا الشهر يكثرون العبادات أكثر من بدايته –البدايات لها مشقتها، والنهايات لها جمالها ولها عظمتها ولها كرمها وعطاؤها الرباني– ومن ذلك: كان قتادة رحمه الله كان يقرأ القرآن في كل أسبوع في غير رمضان، فإذا جاء رمضان ختمه كل ثلاث، فإذا دخل العشر الأواخر من رمضان كان له في كل يوم ختمة.

وهذا يدل على أن هذه الأيام يبدأ الركض.. أنتم تعرفون أن في مضمار الخيول والسباق الخيل الأخيرة هي التي تكون قد تكون أعطت قوتها أقصى ما يمكن.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ٢٦﴾ الحياة سباق والجنة درجات، يتمايز الناس ويتسابقون بها؛ كان الصحابة يتسابقون، كل واحد ينظر إلى الآخر وهو يزيد عليه طمعًا في أن يصل إلى مرتبته، طمعًا في أن يسبق.. الله يحب ذلك، الله يحب التنافس على الآخرة.. الجنة درجات على العبد أن ينافس عليها.

في هذه الأيام الأخيرة من رمضان -تكلمنا عن الاعتكاف؛ ينبغي أن تهتم بالاعتكاف إذا كان عندك القدرة عليه، أن تقيم في الاعتكاف وأن تصنع فيه الطاعات التي يحبها الله، التي كان عليها رسول الله ﷺ؛ فإذا لم يكن هناك اعتكاف، فعليك أن تفرغ الكثير من وقتك من أجل أن تنهي المهمات النهائية التي يتم بها السبق- هذه لحظات عظيمة، عزيزة، قد لا تعود، لا ندري -سواء المتكلم أو السامع- من الذي سيعيش إلى رمضان القادم؟ لا ندري؛ المرء العاقل الذي إذا أصبح عليه الصباح لا ينتظر المساء، وإذا جاء المساء لا ينتظر الصباح؛ هذا هو شأن قصر الأمل، وهو من علامات الإيمان في العبد.

المقصود: في هذه الأيام عليكم أن تبذلوا الكثير من العطاء..

أولًا: الإكثار من قراءة القرآن؛ لا تتركوا القرآن إلا لما تحتاج، إلا لضرورة. إذا استطعت أن تختمه مرة في كل يوم فلا تقصر، وإلا فبقدر ما تستطيع؛ ولكن عليك أن تزيد الحزب والجزء الذي كنت تقرأه.

عليك أن تكثر من الصلوات والقيام؛ هذه أيام القيام، لا تتركها. خاصة لمن فاته القيام في رمضان.. تأتي هذه الأيام فيعطي الله عز وجل عطاء يليق برحمته، يليق بكرمه وجوده جل في علاه. كان النبي ﷺ لا يقوم ليلة كاملة إلا في العشر الأواخر، فإنه كان يحييها كلها، كل الليل، لا ينام؛ فعليك أن تكثر من الصلاة.

ومن الخير أن تكثر من الزكاة والعطاء؛ كان عثمان ﷺ يسمي شهر رمضان بشهر الزكاة، قال: "جاءكم شهر زكاة أموالكم"؛ لأن الأعمال تتضاعف فيه ويبارك فيها ويقبلها الله عز وجل. فلذلك أكثر من العطاء، أكثر من الزكاة.. كان النبي ﷺ كالريح المرسلة؛ ويشتد عطاؤه وكرمه ﷺ في رمضان.. فعليك أن تكثر من هذا.

ثم عليك أن تخلص نفسك.. الله لا يقبل من مشرك ولا من مشاحن؛ الذي يعدل مع ربنا -أي: يشرك به- هذه علاقة مع الله.. مشاحن، هذه علاقة مع الخلق. أول ما يحاسب العبد يوم القيامة على عمله الصلاة، هذه علاقة مع الله؛ وأول ما يحاسب العبد عليه يوم القيامة الدماء، هذه علاقة مع الخلق.. النبي ﷺ قال: «**إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**» هذا "صائم قائم" علاقة مع الله؛ "حسن خلقه" علاقة مع الناس.

فهذه أيام عليك أن تصلح شأنك مع من خاصمته، عليك أن تصلح أخلاقك مع الناس؛ مع أمك، مع أبيك، مع إخوانك، مع أحبتك من إخوانك في الله.. إذا أسأت لإنسان عليك أن تصلح في هذه الأيام ليغفر الله لك..

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ۝١﴾ الخواتم، هذه هي الخواتم ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ عليك أن تكثر من الدعاء.. في هذه الأيام أكثر من الدعاء والاستغاثة بالله عز وجل استغاثة الغريق الذي يرجو قشة من أجل أن يتعلق بها فينجو مما وقع فيه.

هذه الآخرة التي نحن مقبلون عليها، هذه ليست بالأمر الهين؛ هذه فيها الأنباء.. القبر، هذا بيت الظلمة، بيت الدود، بيت الوحدة، بيت الوحشة؛ ما الذي ينجيك منه سوى الأنوار أنوار الطاعات، والعطاء الإلهي في هذه الصلوات والأذكار، والقبر قريب، لا ندري.. والجنة أقرب إلى أحدنا من شراك نعله والنار مثل ذلك.. فعليك أن تنور الدار التي ستذهب إليها.

عليك أن تكثر من الدعاء، وأن تستغيث بالله عز وجل أن يعتقك من النار. السعيد هو هذا ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ۝١٨٥﴾ هذا هو الفوز.

﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي۝٢٤﴾ قدم كأنك ستموت هذه اللحظة، كأن نهاية الشهر هو وفاة.

فعليك أن تكثر من الدعاء أن يقبلك الله، أن يعطيك الله، أن يجعلك من أهل الفردوس الأعلى «**إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى**» سل الله عز وجل برحمة الله..

عليك أن تدعو لإخوانك، عليك أن تدعو للمجاهدين، «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه**»؛ المجاهدون الآن العالم تكالب عليهم ويتآمر عليهم.. أكثروا من الدعاء لهم؛ أكثروا من الدعاء للمساجين..

هذه لحظات عظيمة؛ ونحن كلنا لا نعرف سر الدعاء ولا قيمته.. عالم الغيب تجري فيه أمور من أغرب ما يكون، من صراع الأقدار مع طاعات العباد، يصطرع الدعاء مع الأقدار، «**لا يرد القدر إلا الدعاء**»؛ ولذلك أكثروا من الدعاء في السجود.. أكثروا من الركوع والسجود، «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**» وهذا من أجل أن يدرك درجة المحبين؛ «**لا يسجد العبد سجدة إلا ويرفعه الله بها درجة**».

هذه الأيام هي أيام الجني جني الثمار.. هب أن رجلاً زرع وزرع ولكنه لم يجنِ! لا، هذا وقت الجني. فأكثروا من التعبد، أقبلوا على الله عز وجل كأن وفاتكم ونهايتكم نهاية هذا الشهر..

وتذكروا هذه الأيام المباركة التي فيها ليلة القدر، هذه الليلة العظيمة التي قال الله عز وجل فيها: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ۝٣﴾؛ ليلة خير من ألف شهر عبادة، ليلة!. فأقبل عليها، إياك أن تفوت لحظة منها بغير ذكر، بغير قراءة القرآن، بغير صلاة، بغير دعاء، بغير سجود؛

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ حتى إذا مرت عليك الملائكة سلمت عليك قائمًا، سلمت عليك ذاكرًا، سلمت عليك ساجدًا، سلمت عليك مستغفرًا، سلمت عليك داعيًا.

هذه أيام مباركة أكثروا فيها استغلالها.. يوم القيامة ستجدون كل شيء أمامكم، ستجدون هذه الأعمال؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهل رمضان، ونسأل الله عز وجل أن يجعلنا من عتقائه سبحانه وتعالى في رمضان، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا الصيام والقيام.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

الحلقة الواحدة والعشرون:

قيمة المعاني

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه؛ وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين. جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم.. آمين آمين.

ما زال السؤال قائمًا: هل يمكن إيجاد المسلم الصحابي بخلقه وسلوكه وأعماله وفاعليته في الوجود بعد عصر الصحابة ﷺ؟ وما هو المنطلق؟ لابد لكل شيء من مصدر رئيسي تعود إليه بقية الفروع من أجل أن تحقق مقاصدها؛ فما هي النقطة التي ينبغي أن نسير إليها من أجل تحقيق حقيقة المسلم الصحابي؟

هناك محاولات كثيرة نشأت من قبل الجماعات، ومن قبل الدعاة، ومن قبل المفكرين، من أجل إعادة المسلم إلى الساحة، إعادة المسلم إلى فاعليته في الوجود؛ والكثير منهم نظروا إلى الفروع.

مثلًا: نظروا إلى ضمور الجانب الفكري في العقل المسلم، فاهتموا بتنمية هذا العقل... هناك اهتمام بمهارات الإنسان المسلم، يعني: لابد من تربيته على إبداع مهارات له من أجل تحقيق فاعليته..

وهناك جماعات اهتمت بالجانب السياسي، جانب التغيير المجتمعي، الجانب الإصلاحي.

وهناك من يتكلم عن الجانب التعبدي، ولكن بإطار تاريخي وسيط وليس إلى المصدر الأول "كتاب وسنة".

في الحقيقة: النقطة التي يجب أن نبدأ بها هي تحقيق عبودية الله في النفس، يجب أن نسعى إلى أن ننشئ جذوة الإيمان المرتبطة بتحقيق العبودية، يجب.. إن لم نحقق هذا الأمر على جهة واضحة بينة ستتشتت جهودنا، وربما تنحرف هذه الجهود في وقت من الأوقات؛ يعني: الذي يريد أن يفسر الإسلام تفسيرًا سياسيًا، يريد أن يفسر الإسلام تفسيرًا إنسانيًا.. هذه محاولات موجودة، ولكنها لم تعد إلى أصل القضية؛ وأنتم تستطيعون رؤية هؤلاء الأشخاص بعد مدة كيف تصل انحرافاتهم في مداها الأبعد! لأن الانحراف في الابتداء تكون درجة الانحراف صغيرة، وبعد ذلك إذا انطلق السهم -إذا انطلق الخط- إلى مكان بعيد بدأ الانحراف يبتعد.. هذه قضية مسلمة بها.

النقطة التي يجب أن نسعى إلى تحقيقها في أنفسنا وفي دعوتنا: كيف نحقق عبودية الله عز وجل في هذه القلوب؟ كيف نعبد الله؟ كيف نحبه؟ أن نحب الله عز وجل، أن نخشاه، أن نرجوه، أن نفهم عنه، أن نخبت لطاعته ولأوامره؛ وهذا كله مصبوب على القلب.

الأصل هو القلب؛ إذا صلح القلب صلح العقل، إذا صلح القلب صلحت الإرادة، إذا صلح القلب صلحت جوارح الإنسان.. «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».. القلب هو مرجل الإرادات.

كيف نحقق هذا الصلاح في القلب؟ بتحقيق العبودية؛ وهو أن يفهم الإنسان من هو في هذا الوجود.. القرآن جاء من أجل شرح هذه القضية "من أنت في هذا الوجود"؛ عندما بسط القرآن الكريم هذه النعم العظيمة –تحدث عن الأنهار، تحدث عن الجبال، تحدث عن الأمطار، تحدث عن الظواهر، تحدث عن الرزق، تحدث عن النعم الربانية– تحدث من أجل أن ينبهك إلى كينونتك في هذا الوجود، من أجل أن ينبه أنك أنت الذي ينظر ربنا سبحانه وتعالى إليه؛ ولذلك يجب أن تنظر إلى الله عز وجل، يجب أن تصلح قلبك مع الله، أن تحقق هذا الصلاح.

وأهم قضية تحقق العبودية هي أن يصبح في القلب القيمة العظمى للمعاني.. إذا بقي القلب ملتصقًا بالماديات لن يرتقي في تحقيق العبودية.. العبودية هي تحقيق المعاني، رفعة المعاني، قيمة المعاني، أن تصبح هذه المعاني عندك أعظم من كل شيء في الوجود.

عندما تفهم المعنى تفهم كلمة "الحسنة"، كلمة "السيئة"؛ عندما تفهم المعاني تفهم الخطاب الرباني، تفهم معنى الجنة، تفهم معنى أن يرضى عنك الله، أن يحبك الله..؛ هذه المعاني يجب أن تصبح قيمة.

إذا لم يصل قلبك إلى الإقرار بأن كلمة "سبحان الله" التي ترضي الله –أنت عندما تقول: سبحان الله! الله ينظر إليك نظرة الرضا أنك سبحته، نزهته، قدسته جل في علاه– الآن ما الذي يدفعك لهذه الكلمة؟ يجب أن يدفعك: أولًا أن ترضي الله؛ هذا إن لم يكن في القلب –قيمة هذا المعنى– فإنك لا تذهب إليها، وإذا ذهبت تذهب زاهدًا على جهة الزيارة وليس على جهة الإقامة.. الذهاب فقط مرات، ولكن بقية الحياة لغيرها، لمحبوب آخر من أشياء الدنيا!.

الذي يحقق التعبد هو أن ترقي نفسك لتعظيم قيمة المعاني.. "الشكر" هذا معنى، "التسبيح" معنى، "الحسنة" معنى، "أن يرضى عنك الله" هذا معنى، "أن يضحك الله عز وجل لك" هذا معنى، "أن يناديك الله عز وجل يوم القيامة بأحب أسمائك إليك، وأن يدخلك في كنفه جل في علاه ليسترك كما سترك في الدنيا" هذا معنى..؛ فيجب أن ترتقي نفسك لتعظيم وتقدير قيمة هذه المعاني.

أنت عندما تقرأ كتاب الله عز وجل؛ هو يتحدث إلى قلبك، إن لم يكن في قلبك تقدير لهذه الكلمات التي يتحدث عنها، فما قيمة بقية الأشياء؟! ومن هنا كان في ميزان السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم في معرفة عقل المرء، هو أن تبذل له المعاني، فإن طرب لها فارجُ منه الخير، وإن أعرض عنها وقد قدمت له الطعام والشراب بش ولم يلتفت إلا إلى كرشه! فحينئذ ايئس منه... عندما تعطى أنت مسألة علمية –هذه خاصة بالذهن، خاصة بمعان قلبية ترتقي معارفك بها، تحقق بهذه المعاني وهذه المعارف تحقق عبودية الله، تقربك إلى الله– عندما تجلس أمام عالم ساعات طوال ليشرح لك كلمة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، عندما تسمع كلمة عالم يقول: عندما علم الله أن العبد أعجز من أن يحمده الحمد التام، فتكفل الله جل في علاه أن يحمد نفسه من أجل أن يعلمك كيف تحمده. هذه الكلمات الجميلة العظيمة إن لم يطرب لها القلب فكيف سيبكي لكلمة "الحمد لله"؟! كيف سيقشعر بدنه؟! عندما لا تطرب لهذه المعاني، كيف سيقيمك الأمر القرآني من النوم من فراشك؟!

هل أنت تحب أن يرضى الله عنك؟ عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فكان أبو بكر ﷺ ينفق على مسطح، ثم لما دخل في حادثة الإفك منع العطاء عنه، فأنزل الله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. إن لم يكن في القلب تقدير وتعظيم لمحبة الله عز وجل كيف ستقوم؟! كيف ستخرج من هواك ومن قرارك ومن رأيك إلى أمر ربك الذي يحبك وتحبه؟! قال الله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ فماذا قال أبو بكر؟ بل نحب يا ربنا؛ وأعاد النفقة على من اتهم ابنته زوج النبي ﷺ.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.. هل تعرف ما معنى أن يعظم المرء القيمة العظمى للمغفرة؟ الذنب أشد سوادًا وقذارة من قذارة الأبدان وقذارة الماديات على الثوب؛ هناك أناس لا يتورعون من القذارة على أثوابهم وأبدانهم، لا يتورعون! لا يفرقون بين ما هو قذر وما هو طيب! فتأتي عليهم القاذورات ولا يذهبون لغسلها وإزالتها، لا يعرفون قيمتها. كذلك الذنوب؛ الذنوب هذه قاذورات.. النبي ﷺ وصف الصلاة كنهر جارٍ على بيت أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات.. الصلاة تغسل هذه القاذورات.

القلب تغزوه الإرادات الشريرة، واللسان تغزوه الكلمات السيئة، والعين تغزوها الخيانات؛ هذه القاذورات كيف يزيلها المرء؟ بالاستغفار. إن لم يكن في قلب العبد الرغبة بهذا التطهر والنزوع والكره لهذه القاذورات، ماذا سيرى؟!.

انظر إلى سيرة السلف في النظر إلى المعاصي! يفرون من المعاصي كما يفر المرء السليم من القاذورات؛ يفر منها، لا يريد أن يتلطخ بها، يغض بصره لا يريد أن يتلطخ، يغلق سمعه لا يريد أن يسمع الغيبة أو السب.. ودائم الاستغفار ليبقى هذا القلب منوراً.

إذًا: القضية كلها تعود إلى النور، تعود إلى محبتك للمعاني.. الصحابة ﭫ لماذا كانوا يتلذذون بالقرآن؟ لأنه يتحدث إلى قلوبهم، يتحدث إلى عقولهم، إلى معارفهم..

أن يجلس المرء -كما كان العربي، يمكن أن يموت من أجل بيت شعر؛ المعاني القيمية التي يعطيها كلام الشعر يفنى فيها هذا العربي، يحبها، يعشقها..؛ فلما جاء القرآن ليرقى بهذه اللذائذ ويرقى بهذه النفوس إلى مجالات أخرى تتعلق بأن يحب الله وأن يرضي الله؛ فحينئذ ذهبت نفوسهم.

كل المفاسد تنشأ عندما تسقط قيمة المعاني من قلب العبد؛ عندما تنزع النفس إلى الدنيا، هذه الدنيا هي التي تعارض المعاني؛ فلذلك الصحابة ﭫ اختاروا المعاني، أحبوها..؛ وكلما عرضت لهم الدنيا في جانب مقابل هذه المعاني، تركوا هذه الدنيا وأقبلوا على هذه المعاني.

هكذا تحقق المسلم الصحابي...

وأستغفر الله.

الحلقة الثانية والعشرون:

أهمية قراءة كتب السلف

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه:

تكلمنا في اللقاء الفائت عن قيمة المعاني؛ وعلى المرء أن يدرب نفسه على النظر إليها، يجب أن يُشَوق المرء في صغره لهذه القضايا، والذي يشوق المرء لقيمة المعاني هو القراءة في سيرة رجال هذا الميدان..

يجب على المرء أن يشغل بأن يطرب لذكر وقصص وسير العظماء الذين ماتوا من أجل المعاني؛ الذين ماتوا من أجل الجنة، الذين ماتوا من أجل إرضاء الله.

ومن هنا تأتي قيمة القراءة؛ إياكم أن تتخيلوا أن رجلًا جاهلًا بسيرة السلف، وجاهلًا بحياة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وجاهلًا قبل كل شيء بسيرة المصطفى ﷺ، يمكن أن ترتقي نفسه لأن يبذل هذه الروح من أجل القيم القرآنية والنبوية العظيمة؛ لا يمكن. لا نتحدث هنا عن الجهل بمعناه العامي الاصطلاحي المنتشر –يعني: بمعنى لا يقرأ ولا يكتب– فربما تجد الرجل لا يقرأ ولا يكتب، ولكنه مشغوف ومشغول بسماع سيرة هؤلاء العظماء! يتقفر أخبارهم، ويعرف أحوالهم دقيقها وجليلها.. من أجل أن يطرب لها، يهتز قلبه لها؛ وهذا الاهتزاز لابد أن يذهب إلى مرجل الإرادة، فيشعل في المرجل النار لتنطلق الجوارح إلى أعظم الأفعال.

الطريقة التي عليك أن تسلكها هي أن تكثر النظر في سيرة المصطفى ﷺ؛ أن تنظر إلى هذه السيرة العظيمة، أن تقرأها بدقة، أن تعرف أحوالها كيف كانت.. كيف كانت تعبد ربها سبحانه وتعالى؟ كيف كانت زاهدة في الدنيا؟ كيف كانت تقوم تنصب أقدامها عبودية لله عز وجل؟ كيف كانت كريمة؟ كيف كانت شجاعة؟ كيف كانت رقيقة مع البشر؟ كيف أن النبي ﷺ يجعل «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**»، ويجعل مقابل ذلك «**حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار**»؟.

عليك أن تنظر إلى سيرته، امتلاء النفس بهذه السيرة يجعلها حاضرة عند الحاجة وعند نزول الحوادث.

الناس كيف يتصرفون؟! إما بغياب العقل –وهذا شأن السفهاء–، وإما بحضور العقل.. عندما تقع نازلة من النوازل على المرء، ترى الفرق بين الناس؛ هناك من يستحضر آية من كتاب ربنا سبحانه وتعالى، ومع هذه الآية يستحضر موقفًا نبويًا شريفًا، ما الذي جعله على هذه الحالة من الاستحضار؟ يمكن لآخر أن يستحضر سيرة رجل آخر –سيرة جاهلي من جهال الدنيا– لأنه مشغوف به، وربما له شغف –كما ترون الأطفال والناس يعلقون

صور الجاهليين صور اللاعبين والممثلين- ببعض قصص الآخرين من غير المسلمين.. فهو يحاول أن يدخل في هذه الصورة، يتمثلها عند وقوع هذه النوازل!

من هنا ذكر النبي ﷺ: عندما تقبض روح ابن لرجل، فيسأل الله وهو أعلم: «**ماذا قال عبدي؟**». قبض فلذة كبده، قبض روح هذا الابن الذي تعلق به حبًا، فيسأل الله: «**ماذا قال عبدي؟**» -هنا يظهر ما في القلب ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ كما أنها تحصل يوم القيامة، فكذلك تحصل عند النوازل- «**ماذا قال عبدي؟**» قال: حمدك واسترجع -قال: الحمد لله، إنا لله وإنا إليه راجعون-، فيقول الله: «**ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد**»..

وللذكر: هذه أمة هي أمة الحمد، ولواؤها يوم القيامة بيد المصطفى ﷺ هو لواء الحمد، فانظر أن يكون للعبد بيت في الجنة يسمى بيت الحمد.. كما أن هناك أبواب للطاعات، فهناك بيوت للطاعات؛ «**إن للمجاهدين في الجنة مائة درجة، ما بين الدرجة والدرجة مائة سنة**» كما في الصحيح.. فهناك أبواب موزعة -باب الجهاد، باب الصلاة، باب الزكاة، باب الحج.. - كذلك البيوت في الداخل؛ البيوت في الداخل تسمى بحسب عملك في الدنيا، فهذا بيت الحمد، وهذا بيت الشهادة، وهذا بيت الضحى، وهذا بيت قيام الليل، هذا بيت سجود الشكر، هذا بيت التسبيح... في الحديث الذي سنده حسن، ماذا يقول إبراهيم علبه السلام لنبينا ﷺ في ليلة المعراج؟ يقول: «**أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة قيعان وأن غراسها: سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر**» -هذه شجرة "سبحان الله"، هذه شجرة "الحمد لله".

نعود: ما الذي ينتج هذا الفعل؟ هو امتلاء القلب بهذا المثال، وهو حمد الله والاسترجاع؛ هكذا النبي صلى الله عليه وسلم.. لما مات ابنه إبراهيم قال: «**لا نقول إلا ما يرضي الله..**».

ما الذي يملأ القلب إذا وقعت النعمة؟ شكرها؛ نظر أنها لم تقع إلا بيد الله وعطائه وكرمه وسخائه وجوده... ما الذي ينتج هذه الأمور؟ هو امتلاء القلب بقصص هؤلاء الرجال، أن يقرأها -ليس مرة- مرات ومرات. ألا ترى أن العبد وهو ماشٍ ولا يدري بنفسه تراه يدندن! لماذا يدندن؟! لأن النفس مشغولة. حتى وهو يشتغل، حتى وهو يتحدث فتجده يدندن دون أن يدري! هذا شأن الناس مع ما في قلوبهم من امتلاء.

قال عن النبي ﷺ والقرآن «**تقرأه نائمًا ويقظان**». لماذا يقرأه نائماً؟! لأن القلب مليء به، يفيض على اللسان لحظة النوم حتى وهو غائب، وحتى إرادته غائبة عنه.

والله أنا تقفرت الكثير ممن كان يحفظ القرآن، فوجدت أن أيام الحفظ -لأن المرء مشغول، ذهنه مشغول حقيقة وليس فقط يقرأ ولكن يركز- تجده في أيام حفظ القرآن يستيقظ وهو يقرأ القرآن، ويقرأ القرآن وهو نائم.. قلما سألت رجلًا حفظ القرآن إلا ومر بهذه الفترة.

فلذلك على المرء أن يقرأ سيرة النبي ﷺ، أن يقرأ سيرة العظماء الذين شغفت قلوبهم بحب المعاني وتحقيق الحسنات ومحبة الغيب والآخرة والجنة –هذه الجنة العظيمة وهذا الرضا الإلهي الأعظم ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ هو أكبر من كل شيء–؛ لابد أن تقرأ سيرة هؤلاء، أن تشغف بهم.. أن تقرأ سيرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

هنا نفترق فيمن نرى هذه الجماعات، أو نرى الناس الذين يعيدون ما يسمونها بالتربية الفكرية.. يملأونهم بقراءة كتب الأغيار! وليس هذا تحقيرًا لها، فمن الخير أن يقرأ المرء للآخرين ليعرف ماذا يقولون، ولكن قبل كل شيء أن تقرأ ماذا يقول الله...

يعجبني أحدهم وقد قال: يريدون منا أن نقرأ تحت شعار قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ١﴾، وهم لا يقرأون ما قاله الله في قوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾. يعني: هم يقولون: اقرأ.. ماذا أقرأ؟ اقرأ ما يقوله الآخرون، استجابة للقرآن ومطلق ما طلب من القراءة؛ ولكنهم إذا سئلوا: هل قرأتم القرآن؟ فلا يقرأون من طلب منهم أن يقرؤوا كتابه! لا يقرأون.

فعليك أن تهتم بقراءة سيرة الصحابة ﷺ، سيرة العلماء... الدنيا –أيها الأخوة الأحبة.. المرء يتكلم الآن بعد تجربة– الدنيا مليئة بالفتن ومليئة بنزغات الشيطان، ومليئة بالمحيط الذي يجلبك إلى الشر –إما عدو يريد أن يجرك إلى المعاصي، وإما صديق يريد أن يجرك إلى الغفلة– والدنيا مليئة بالظروف والأحوال..؛ ولكن حين تقرأ سير السلف ونصائحهم وحكمهم، حينئذ يرتد إليك عقلك، يرجع إليك عقلك فتبصر، وحينئذ تقوم إلى القرآن تقرأ ماذا كان يقرأ الصحابة في القرآن فتعود إلى القرآن.

ولذلك العظماء في التاريخ.. لم يحدث –هذه نقطة مهمة– لم ينشأ عظماء في أمتنا قط إلا وكان مدادهم من القرآن، وسير العظماء؛ كلهم كان لهم شغف عجيب بسيرة الصحابة ﷺ، يحبونها.. حتى الملوك قديماً –الذين صنعوا التاريخ الإسلامي العظيم– كانت لهم مجالس، يحضرون الإخباريين والمؤدبين لأبنائهم ولمجالسهم، ليتلو عليهم هؤلاء العلماء يتلون عليهم أخبار الكبار.

لا يوجد الآن –للأسف– الاهتمام بهذا الجانب إلا قليلًا؛ الذين يهتمون بالبناء الفكري لا يهتمون بالبناء النفسي، والبناء النفسي أشد وأشق وأتعب، وهو الذي يحقق الفاعلية والدوام.. علينا أن نهتم بهذا البناء الداخلي، وهذا ليس فقط الاهتمام بالتزكية بالمفهوم التاريخي البدعي، لا، إذا صلح قلب العبد صلحت اختياراته الفكرية، يبصر الأشياء على المعنى الحقيقي.. حتى هذا له دور في الفتوى؛ انظروا إلى عالم الفتوى المتسيب في عالم المسلمين اليوم! سببه عدم ذكر الدار الآخرة، سببه عدم معرفة حياة الصحابة، سببه عدم معرفة سير العلماء..

ولذلك الطريقة التي نصنع بها فاعلية المسلم المعاصر في كل وقت، هي أن ندعوه إلى القراءة؛ وأولًا أن ندعوه إلى قراءة القرآن، ثم سيرة النبي ﷺ، ثم سيرة الصحابة.

البارحة كنت أتحدث مع بعض الإخوة -لا بأس بهذه القضية وإن كانت تأخذ بعض الوقت-: القانون لا يصنع التربية والتزكية والأخلاق، الذي يصنع التربية والأخلاق هو القرآن، القرآن وسيرة الصحابة. مثال ذلك: هل نستطيع أن نصيغ قوله تعالى في آخر سورة البقرة عندما تحدث عن الربا: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؟ هذه كيف تصاغ قانونيًا؟! أن نفتح مؤسسة تجارية -يسمونها "البنك" اليوم- ونقول هكذا ونضع هذا الشعار لها.. هل يمكن أن يصاغ هذا قانونًا؟ يعني نقول: من يأخذ منا الدين ولا يستطيع أن يسد، فلا زيادة ويبقى له، ويمكن أن نسامحه إذا وجد الظرف الجيد! هذا قانون أخلاقي، هذا يتعلق بقيمة تتعلق بالدار الآخرة، تتعلق بخلق المرء وسلوكه.. لأنه يؤمن بالله، لأنه يقرأ القرآن، لأنه يصدق كلام الله، لأنه عبد يمتثل لأمر الله عز وجل.

هذه هي القضية.. ولذلك الطريق لسلوك الصلاح: أن نقرأ سيرة الصالحين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الحلقة الثالثة والعشرون:

مُبشرات

إن الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على سيد الخلق وإمام المرسلين مُحَمَّد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين؛ جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم.. آمين آمين.

أيها الإخوة الأحبة: إن مما يقتل النفوس ويذهب بهاء الإيمان من القلب، بل يوصل صاحبه إلى الكفر وعدم الثقة بالله، هو اليأس والقنوط من رحمة الله. هذا أمرٌ مقرر بين المسلمين، ولذلك كل مسلم يستحضر قصة يوسف عليه السلام..

هذا النبي العظيم الذي أخذه إخوته فتىً صغيرًا فألقوه في غيابة الجب ليتخلصوا منه.. وهو سار المسيرة الطويلة في رحلة الحياة وفي تنقله من بلاء إلى بلاء ومن فتنة إلى فتنة، ولكن كانت صفة "الإحسان" هي التي تتحقق فيه؛ كل من رآه: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ۝٣٦﴾، هذه كلمة.. كيف يقولها سجين لسجين آخر لا يملك مالًا يقدمه إليه؟! ولكن هذه صفة الإحسان أعم من قضية الإحسان بالمصطلح العامي "أن يقدم إليه المال"، المسألة أعظم من ذلك.. فمشى هذا النبي الكريم يعيش الفتن ويصبر عليها، ويرى نور الله عز وجل أمامه فيختار ما يريده الله ويستحي أن يأتي المعاصي.

على الجهة المقابلة، كان يعيش شخص آخر مبتلى بغياب أحب أبنائه إليه، وهو يعقوب عليه السلام؛ يراقب لحظة الفرج.. وفي كل لحظة يكشف القرآن عن هذه الشخصية وحالها، يتحدث عن هذا الأمل في أن يعود إليه.

لما جاءوا إليه وقالوا: قد أكله الذئب ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ۝١٨﴾ الصبر.. ما معنى هذا؟ يعني أنه يرقب الفرج، الصبر الجميل بلا شكوى ويرقب الفرج.

وعندما ذهب ابنه الآخر –في قصة يوسف عليه السلام معه، حيث وضع صواع الملك في رحله ثم أخذه ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ – جاءت صورة يعقوب عليه السلام وقد دخل عليه أبناؤه: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ۝٨١﴾.. ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ﴾؛ هو لا يعلم الغيب.. في المرة الأولى قالها يعقوب وقد أصاب –أن أنفسهم سولت لهم الشر– وفي المرة الثانية لم يصب، أجراها على المعنى الأول فقال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ..﴾ مع أنه لا دخل لهم فيها، ولم يكن من أفعالهم أي سبب أدى إلى

أخذ شقيق يوسف عنده وغيابه عن أبيه. ومع ذلك قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾؛ جاء بصيغة الجمع هنا! ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ وليس بهما، ليس فقط يوسف وأخوه وإنما كذلك الأخ الذي قال: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وقال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾، فهؤلاء الثلاثة حتى يتحقق الوعد بمجيء جميعهم إليه.

وفي كل لحظة كان يتوكل على الله ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧﴾. ثم قال كلمته العظيمة لأبنائه: ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ الآن اذهبوا فتحسسوا من يوسف! ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾. هذا يقين الأنبياء.. مع شدة البلاء يأتي الصبر، ومع شدة الصبر يأتي انتظار الفرج.

الله يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾؛ الناس كلهم يحفظون "لا يغلب عسر واحد يسرين"، ولكن –كذلك– من المعاني التي تغيب عنهم أن اليسر هنا منكَّر؛ يعني: أنت تعرف طريق العسر –هنا يوجد عسر "غياب الابن" وهو واضح ومعرف، ولكن كيف يعود الابن؟ فنكَّرَهُ ليبقى مجهولًا، حتى إذا جاء الفرج جاء على غير ما تتوقع ومن باب لا تتوقعه؛ بل ربما يخرج لك من الحائط محطمًا الجدر ليصل إليك! إنه فعل الله ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ لطيف: أي يجري أقداره على معنى لا يدركه البشر –الكثير من البشر– ولكن في النهاية يعلمون أنه سيقع الفرج.

الله عز وجل قص على نبينا ﷺ قصص الأنبياء وبيّن كيف نصرهم –كل نبي نُصِر بطريقة تختلف عن طريقة نصر الآخر– من أجل أن يقول للنبي ﷺ: أنا سأنصرك، اصبر فإن العاقبة للمتقين، كما في سورة هود بعد أن أنهى قصة نوح عليه السلام ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾. هذه العاقبة كيف ستتم؟ يرى النبي ﷺ في المنام أن له مهاجر إلى أرض سبخة وأرض ذات نخل، فيذهب وهمه ﷺ إلى الطائف، ولكن لا يدري كيف سيقع.

هكذا المؤمن؛ عنده اليقين أن قدرة الله لا يحدها شيء، وأن نهاية كل شدة هي الفرج، وأن نهاية كل بلاء هو الانفراج. الحجاج كان يقول: لولا علمي بمتعة اللقاء لما عذبت خصومي إلا بالسفر؛ مسكين الحجاج! لأنه ما من مهموم إلا وسيكون له متعة اللقاء –ليس فقط المسافر، حتى المسجون عنده متعة اللقاء– ولذاك كنت أقول لإخواني: كما أن للصائم فرحتان فرحة عند فطوره وفرحة عند لقاء ربه، كذلك السجين، السجين له فرحة.. والله إن البعض يحدث: عندما يرى متعة السجن عند الخروج، يقع في قلبه: لعلها تعود، لما يقع من متع لا يعلم بها إلا الله.

فلذلك يعقوب عليه السلام عندما وقعت كل هذه البلاءات المتعاقبة –زمن طويل.. ذهب فتى صغير، رمي في البئر، حتى صار شابًا، كبيرًا، يولى خزائن الأرض– بقي على صبره حتى ابيضت عيناه من الحزن، من شدة ما بكى –وهم وصفوه: ﴿تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ حتى لسانه لم يسكت عن ذكره– ومع ذلك وقع الفرج، التقى معه..

وكان ذلك على معنى لا يتوقعه أحد، أن يلتقي هذا الشيخ الجليل مع ابنه وهو على خزائن الأرض وهو عزيز مصر.

العطاء الإلهي مربوط بالبلاء؛ والبلاء يعني الشدة، يعني ضغط النعمة –النعمة تُضغط من أجل إذا خرجت خرجت منتفشة جميلة تملأ الوجود، وتملأ كيانك وعقلك–، وكلما اشتد البلاء راقب الصالحون الفرج، لأنها تصل إلى النهايات.

هذا ابن القيم رحمه الله يجعل في قصة الثلاثة الذين خلفوا –أي: خلفت توبتهم كما يقول الصحابي رضي الله تعالى عنه– فيقول: إن نزول الأمر الإلهي بفراق هؤلاء الثلاثة لزوجاتهم كان مؤذنًا بالفرج. انظر هذا الفقه! كلما اشتد البلاء دل على اقتراب الفرج.

زيادة البلاء ماذا تعني؟ يعني: زيادة فجور الفاجر وكفر الكافر وفسق الفاسق؛ عندما ترى هؤلاء الذين يتحكمون في رقاب المسلمين وقد زاد إجرامهم، وبغوا، وطغوا، وأفسدوا، فارقب قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا۝١٦﴾. الله يحب العذر، ومن عذره أن يقول للناس: انظروا.. هناك بلاد لو دمرها الله –دمرها بدمار هؤلاء الطغاة– لقال الناس: فيهم خير! ولبكاهم بعض الناس –إذا كان الطواغيت الكبار كالقذافي.. بعض الناس الآن ربما يقول: هو خير من الذي سيأتي، مع أن الذي سيأتي عظيم لأهل الإسلام من الفرج والعطاء– ولكن سيقول بعض الناس: كان فيهم خير، فعلوا كذا وكذا!

الآن ترون: الفساد قد طم في البلاد وعم، وفجروا فيه وأظهروه و «**كل الناس معافى إلا المجاهرون**». فلذلك الفرج قريب والأمل بيد الله عز وجل.

كلما اشتدت المحن –هذا دليل انفراج– الجاهل ينظر إليها: كيف هذه المحن المختلطة والشديدة كيف ستنفرج؟! هم يظنون أن سهولة المشكلة يعني حلها، ونحن نقول: كلما ازدادت المشكلات اقترب فرجها؛ فكيف هذه المعادلة؟! لأن الله سبحانه وتعالى هو رب كل شيء؛ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ من أجل أن يعرف الناس ربهم، من أجل أن يقيم عليهم الحجة ليعبدوه.. زوال الطواغيت كان مؤذنًا بأن يتوب الآخرون، كان مؤذنًا بزيادة شرهم ليقع عليهم البلاء.

الخير القادم سيملأ هذه البلاد، سيملأ الوجود الإسلامي.. الذين يتساءلون: أين هو؟! والله إنه ينتظر على الباب، والله إن الفرج قادم.. ليس الفرج فقط أن يفرح الغائب بإيابه إلى أهله، لا، بل بنصرة الإسلام والمسلمين، وبزوال الطواغيت، وتحقق العدل، مع الفهم الصحيح لقيام الجهاد "أنه بلاء".

الصحابة انتصروا.. ولكن هاجروا، فقدوا بلادهم؛ الصحابة جاهدوا وانتصروا.. ولكن مات منهم الكثير؛ الصحابة انتصروا وفتحوا البلاد.. ولكن الطاعون -طاعون عمواس في فلسطين- مات أكثر من عشرين ألف صحابي. لا يوجد في الدنيا نصر بلا ثمن، لا يوجد فرج بلا بلاء، لا يوجد عطاء بلا صبر؛ هذه هي الدنيا. وأعظم الناس نعيمًا وسعادةً وفرجًا هم الشهداء، أعظم الناس هم الذين يرحلون إلى الله عز وجل

ركضًا إلى الله بغير زاد *** إلا التقى وعمل المعاد

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

الحلقة الرابعة والعشرون:

براءة أهل العلم من مدعيه الكذبة

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه؛ وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين. جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم.. آمين آمين.

الحق –أيها الإخوة الأحبة– لا يعيش حالة تجريد ذهني فقط، الحق كما أراده الله عز وجل أن يعيش رجلًا، فلابد لناطق الحق أن يكون حيًا مع هذا الحق..

الله عز وجل أنزل هذا الحق العظيم "القرآن والكتب السابقة" أنزلها مع رجال يعيشون هذا الحق، يتمثلونه، يصبرون عليه، يمثلون مثالًا لمن رآهم أن الحق لو سئل: أين أنت؟ لتمثل في رجل.

كان من سيرة الصحابة ﷺ في غزواتهم إذا حملوا رسائل الدعوة إلى الملوك وإلى الناس، يدعونهم: إما إلى الإسلام، وإما إلى الجزية، وإما إلى القتال.. قالوا: كيف نسلم؟ قالوا: أن تكونوا مثلنا! انظر إلى هذا، هذا موقف عظيم.

يمكن أن تفهم أنت كلمة سليمان عليه السلام وهو يقول –سليمان نبي وملك، وقد علم أنه نبي عظيم، وأنه ملك زاهد.. عندما أرسلت هذه الملكة –وصفها الهدهد: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ – له هدية، ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾، ماذا قال سليمان؟ ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾. كلمة "هدية" في القرآن لم تذكر إلا هنا، لم تذكر إلا في هذا الموطن في حديث ربنا سبحانه وتعالى عن إرسال هذه المرأة المال، وهو في الحقيقة يتخفى تحت هذه الكلمة الرشوة.. هي امرأة وملكة، وهي ذكية، فأرادت أن تعرف أي نوع من الرجال هذا الذي حمل هذه الرسالة، التي سمتها ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ ـ فيمكن أن نفهم قول سليمان في هذا الإطار عندما قال عليه السلام: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ..﴾. يكفي أن يقول عليه السلام: اعبدوا الله.. لا، الحق لابد أن يكون له كنف مادي يأوي إليه، وصورة عملية يتمثل هذا الحق في هذا المثال وهذا السلوك؛ فقال: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ يجب أن تخضعوا لملكي..

هذا يمكن، لأنه ملك. فماذا نصنع في مؤمن آل فرعون؟! هذا المؤمن الذي يكتم إيمانه.. يعني: يخاف، وضعيف، ولا يملك ملك سليمان، وهو مجرد رجل واحد في داخل سلطان فرعون؛ ومع ذلك ماذا قال لقومه في آخر خطاب لهم؟ ماذا قال؟ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ﴾؛ هكذا تصنع عزة الإيمان، عزة الإيمان في القلوب تصنع الإمامة لصاحبها وهو لا يدري، فيصبح مثالًا لأن يلحق الناس به كائنًا من كان.. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ الله أكبر! فورًا صار هذا الرجل إمامًا يتبع، لماذا؟ لأنه أول من آمن، بل ربما هو الوحيد الذي آمن –قبل أن يؤمن السحرة بعد ذلك– من قوم فرعون.. فقط هؤلاء الذين آمنوا من قوم فرعون، ومع ذلك –مع ضعفه– صار إمامًا ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾.. قبل أن يقول هذه الكلمة عاش الحق في نفسه، وصار قويًا بهذا الحق، وصار كنفًا يؤوى إليه في تحقق المثال.

بهذا نفهم ماذا يقول العبد في آخر سورة الفرقان عندما يدعو ربه سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾؛ ولن يكون المرء إمامًا في التقوى حتى تصبح التقوى فيه أعلى درجة من أي شيء آخر، حتى يصبح هو إماماً تقياً.

ولذلك: العلم –أيها الإخوة الأحبة– ليس كلامًا، العلم الذي ورثه سلفنا هو سمة، خلق، صفات..؛ يجلس التلميذ لدى العالم من أجل أن يأخذ منه علمه من خلال عمله.. ابن الجوزي ذكر في صيد الخاطر أنه انتفع بعالم لكثرة ما كان يراه من زهد وبكاء إذا قرأ القرآن، وقال: نفعني الله عز وجل ببكائه أكثر مما نفعني بروايته.

العلماء وصفهم الله بأنهم قيادة في منع تصرفات القلوب خارج إطار العبودية لله؛ يمنعون هذه القلوب أن تنزلق إلى النظر إلى الشهوات والدنيا.. هذا تحقيق لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾.

عندما وقعت فتنتان لبني إسرائيل مع هذا الرجل "قارون"، ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ يعني هو إسرائيلي، ومع ذلك كان من سدنة فرعون يخدمه ويشتغل في قصره! وعنده المال؛ فأول فتنة أنه كان عنده المال، ويسمع الناس ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ الناس يسمعون عنها، قارون عنده أموال، يسمعون بها ولم يروا هذه الخزائن ولم يروا هذه المتع.. فحينئذ قومه كلهم دعوه إلى الطاعة، دعوه إلى عدم الاغترار بالدنيا، ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ –الله لا يحب الفرحين ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ٧٥﴾ الله يعذب على الفرح بهذه الدنيا الذي يؤدي إلى البطر والشر والكبر والترفع– لكن قارون خبيث، فأراد أن يفتن الناس –وقد حدث– ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾، خرجت هذه الجموع المالية التي يحويها معه لينظر الناس إليها –وفي الخبر: "ليس الخبر كالمعاينة"، الله أخبر موسى عليه السلام أن قومه اتخذوا العجل إلها وعبدوه، فرجع إلى قومه غضبان أسفًا؛ لكن لما رآه ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه– ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ هؤلاء قومه الذين قالوا له قبل قليل لا تفرح! الآن انساقوا وضاعوا مع هذا المال. المرء قد يقول: يتمنى أن يكون له مثل مال قارون

ومع ذلك ينفقه في الحلال! لا لا، مجرد الاغترار القلبي بصور هؤلاء الهلكى، والاحترام والتقدير لهم، وتمني أن يكون مثلهم، هذه معصية كبيرة من معاصي القلوب.

من الذي انبرى لإصلاح هذه القلوب؟ العلماء؛ العلماء الذين قال الله عز وجل عنهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ﴾ هذه معصية كبيرة ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ۝٨٠ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ من الذي يصلح؟ العلماء، هم الذين يصلحون القلوب؛ وشرط العلماء هو الزهد فيما في أيدي الناس.

العالم عندما يقول: أن تكونوا مثلي؛ أن تكونوا قوالين بالحق مثلي، أن تكونوا صابرين على البلاء مثلي، أن تقدموا الحق على أنفسكم مثلي، إن أردتم الإيمان ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ۝٣٨﴾.

فلذلك: العلم هو العمل.. الذي يحدث: إن هذا العلم فيه عزة، لأنه مأخوذ من القرآن ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ۝٤١﴾ القرآن كتاب عزيز والعلم عزيز؛ ومن شأن العزيز أن لا يجاور الذليل، ومن شأن العزيز أن يكشف الحقير، هذا شأنه؛ ولذلك من شأن العلم أن يكشف كل الدعاوى الكاذبة التي تلتصق به.

الذي نراه في هذا الزمان من هؤلاء الكذبة الذين يمارسون المشيخة على طريقة عرض الأزياء والممثلين، فيصبح لهم الصدى ويصبح لهم الحضور! والناس مساكين، فبعض الناس يغتر بهم أنهم يقولون الدين، وبعضهم يحبهم لأنه يريد الدين الذي يصاحب الهوى، وهو كذلك يحب الدين ولكن مع الهوى –هناك أناس لا يريدون الحق كما هو؛ يحبون الحق مع الهوى، يريدون الخير ولكن من غير بلاء، يريدون العلم ولكن مع الرفعة والطيلسان– فبعضهم إذا خرج يحبونه لأنه ينفذ الهوى، وإلا كيف يصدق واحد مجرم يقول: إن الصلاة ليست فريضة أو أن الزنا ليست جريمة! ومع ذلك يلحقه الناس لأنه ينفذ أهواءهم.

هذا العلم من ميزته أنه كالمدينة "تطرد خبثها"، كزمزم "لا يقبل الشريك"؛ فلذلك بعد مدة يُمتحن، الله يرفع شأنه. وإذا فسد، العلم يطرده، يقول له: اخرج.

فلذلك: ما ترونه من سقوط المشايخ، هو لأن العلم أسقطهم

أيها المعرض عنا *** إن إعراضك منا

ما الذي حدث لهؤلاء؟ العلم قال لهم: كفى كذباً والتصاقًا بي، انصرفوا؛ لئلا يتهم العلم بالشر، لئلا تقع التهمة على العلم نفسه –لأن قبول العلم لزمالة هؤلاء يعني أنه مخطأ–؛ فيبقى العلم عزيزًا، لأنه منتسب إلى الله، ولأنه السبيل العظيم الذي يوصل إلى الجنة ويوصل إلى المكارم. فحيث لا يمشي مع هذا العلم في سبيله –الذي يوصل إلى المكارم ثم يوصل إلى الجنة– يقول له: انسحب واخرج.. فتراه يسقط.

سقوط هؤلاء يعني أنهم كذبة، ولا ينبغي أن ينتسبوا إلى العلم؛ والأسماء كثيرة من كرامات الله عز وجل وهؤلاء لا تحزن عليهم، إياك أن تحزن أن الله يكشف الحقائق! هذا من نعم الله عليك أن يكشف الحقائق، أن تعرف الناس، أن يبين لك: من هو الحق؟ من هو الشر؟ من هو الفاسد؟ من هو الصالح؟؛ هذا من نعم الله عز وجل عليك.

عليك أن تهتم بهذا، عليك أن تفهم أنه إذا طُرد من العلم دل على أن العلم عزيز وأنه لا يقبل شراكة القذرين لئلا يقذروه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

الحلقة الخامسة والعشرون:

أهمية أعمال القلوب

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه؛ وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين. جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم.. آمين آمين.

العبادات ظاهرة وباطنة، ولا تنشأ الأعمال الظاهرة -من أقوال وسلوك عمل الجوارح- إلا بوجود جذرها في داخل القلب "الإرادة"؛ والإرادة هذه لا تنشأ إلا من خلال قوة الدافع ومصارعة المانع وغلبته في اتجاه الطاعة؛ فالله سبحانه وتعالى يقيم كل الشأن لعمل القلب.

على المرء أن ينظر قلبه، هناك عبادات قلبية لا يعدلها عمل آخر، وبهذه العبادات القلبية العبد يسبق من ينافسه في الأعمال البدنية..

لو نظرنا إلى حياة التابعين وتابعي التابعين، لوجدنا أن عندهم الأعمال التعبدية الكثيرة؛ منهم من كان يقوم الليل كله، ومنهم من كان يقرأ القرآن في يوم، ومنهم من يصوم ولا يفطر؛ فالأعمال السلوكية يوجد في الأمة من بز فيها درجة بعض آحاد الصحابة.

ولذلك أعمال النسك التي نشأت في العصور التي تلت عصر الصحابة ﷺ، هي أعمال مشهورة، مشهور أن هناك عُبّاد لله عز وجل؛ ولكن لا يمكن أن يبلغوا في أعمالهم هذه درجة الصحابة، لأسباب كثيرة؛ من هذه الأسباب: أن الله عز وجل نظر إلى الصحابة فوجد أن أعمالهم هي التي ترسي الدين، هي التي تحقق الأولية؛ كما في حديث أنس لما دخل جماعة من مضر -عامتهم من مضر- مجتابي النمار من شدة فقرهم، فالنبي ﷺ حض الصحابة على الصدقة؛ فدخل رجل معه صرة من طعام فألقاها بين يدي النبي ﷺ -بعد أن حض النبي ﷺ وقال: «**لينفق أحدكم من مده، من صاعه، من تمره..**» - جاء هذا الرجل حاملًا صرة تكاد يده أن تعجز عن حملها -بل قد عجزت- ووضعها بين يدي النبي ﷺ؛ فتدافع الصحابة حتى اجتمع عند النبي ﷺ كومان من طعام وثياب، ففرح النبي ﷺ وقال حينئذ كلمته العظيمة، قال: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**».

ومعنى الحديث: لم يأتِ هناك تشريع غير ما قاله النبي ﷺ من حض الصحابة على الصدقة؛ ولكن هذا الرجل الذي بدأ بهذه السنة العملية فاقتدى بها الصحابة -بهذه السنة، بفعل هذا الرجل-، كل من جاء بعده دخل في أجره؛ كل واحد جاء بعد هذا الرجل وعمل بعد هذا الرجل، فعمل هذا التالي داخل في عمل الأول. فمن عظمة هذا الدين أن الأولية لها قيمتها؛ ولذلك لا يمكن لأحد أن يدرك شأن الصحابة ﷺ، لا يمكن، لأن أعمالهم هي التي أسست هذا الدين؛ وهم أول من طبق هذا الدين، فكل الناس يأتون تبعًا لهم، وما من عمل يعمله الناس بعد ذلك إلا ويقتدون بالصحابة.

هذه من الأسباب... ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾؛ الذين أنفقوا في الأول والابتداء، هؤلاء درجتهم لا تسبق. هذه من الأسباب التي تميز فعل الصحابة ﷺ؛ فلذلك إذا أنفق أحدكم مثل جبل أحد لا يدرك مده ولا نصيفه، وهذا كلامه ﷺ لخالد! أي للصحابة المتأخرين.. إذاً هي تقدير للأولية، القيمة للأولية.

لكن من الأعمال التي تميز أعمال الصحابة عن غيرها، هي الأعمال القلبية؛ اليقين على الله، التوكل على الله.. البلاء الذي وقع على الصحابة رضي الله تعالى عنهم فصبروا ولم تتزعزع ثقتهم بالله، يقينهم بالله عز وجل كان من أعظم اليقين.

ولذلك هذا العمل القلبي يتم به تمايز الأعمال، تمايز درجات الأعمال؛ العمل القلبي مهم -التوكل على الله عز وجل، اليقين على الله، الثقة بالله عز وجل، حسن الظن بالله.

دعوني أصارحكم بكل ثقة وبكل محبة: هذه الكلمات لا تشرح! ماذا يعني التوكل على الله؟! الإنسان يسري في هذه الحياة، يمشي وهو يطلب الرزق، وهو يطلب النجاح، وهو يطلب الزوجة، وهو يطلب السعة في هذه الدنيا.. وهو يطلب السعادة كما يظن؛ فأين التوكل على الله؟! أين الثقة بالله عز وجل؟!

هذه المعاني لابد أن يعيشها المرء، لابد أن يحسها في قلبه، أن يتوكل على الله؛ كلمة التوكل هذه لا تصنع إلا بعد أن يفرغ القلب من النظر إلى الأشياء، لا يمكن أن يقع التوكل على الله في القلب حتى تسقط قيمة الأشياء وكأنها غير موجودة.

الأسباب -أيها الإخوة- أقامها الله عز وجل لأن هذه الحياة هي دنيا الأسباب، وكذلك الآخرة! شيخ الإسلام رحمه الله يقول: ما من شيء في الوجود إلا وله سبب في الدنيا والآخرة. ولكن هذه الأسباب هي حجاب عن رؤية اليد الفاعلة لها والمجرية لها والمقدرة لها والتي تجريها في أحوال الناس وتوزعها، تمنع هذا وتعطي هذا... الثقة بالله عز وجل تحقق اليقين، واليقين يحقق الفعل، اليقين على الله يحقق الفعل.

الناس لا يدرون أن بهذا التوكل يتم الرزق؛ التوكل على الله يتم الرزق، اليقين على الله عز وجل يتم قضاء الحوائج.

أعمال القلوب -أيها الإخوة الأحبة- هي من أعظم الأعمال عند الله عز وجل، بل محط نظر الله عز وجل إلى هذه القلوب وما يجري فيها من أعمال؛ وهذه لا يمكن أن تنشأ إلا بالتمرين، وأن يكرمك الله عز وجل في مواطن بلاء وصدق تتوكل فيها على الله.

من هنا نفهم "لماذا كان السلف يحبون البلاء؟ "؛ المرء لا يطلب البلاء، لا يطلبه، ما أوتي العبد خيراً بعد الإيمان من العافية؛ العافية أمر عظيم، لكن لابد للمرء أن يقع في أحوال لا ينظر إلا إلى الله، لا يرجو شيئًا من أشياء الدنيا إلا ما عند الله عز وجل، ينظر إلى فعل الله عز وجل... الصحابة ﷺ في كل معاركهم كانت هذه المعارك -إن فشلوا فيها- تمثل الاستئصال لجيل الصحابة، وهذه الحالة كانت تصنع فيهم التوكل على الله؛ كانوا لا ينظرون إلى الأشياء التي بأيديهم، لا ينظرون إلى قوتهم ولا إلى عددهم، ينظرون إلى الله.

والذي يصنع التوكل هو أن يكرمك الله في مواطن لا تنظر فيها إلا إليه؛ تنظر إلى فعله، ترجوه، حينئذٍ ترفع يديك مستغيثًا به استغاثة الغريق، طالباً منه النجاة، ولا ترجو غيره؛ حينئذ يقع في قلبك هذا المعنى الذي هو نور يقدح في القلب، قبس، معنى..

المرء يقع في ظروف يصعب عليه أن يتكلم عن هذه الكلمات! يعني: كيف التوكل على الله؟!

ادعُ الله عز وجل أن ترزق هذه المعاني، ادع الله سبحانه وتعالى أن يقذف في قلبك هذ المعاني فتدرك معانيها.. هذه معانٍ دقيقة، لا تتحصل بأن تذهب إلى الكتاب من أجل أن تشرح معنى كلمة التوكل، ولا بأن تسمع خطبة لتعرف كيف التوكل؛ التوكل هو حالة، اليقين على الله هو حالة، الثقة بالله حالة، حسن الظن بالله حالة..

تعرف ما معنى حسن الظن؟! حسن الظن يعني أن ترى كل نعم الله، أن ترى هذه النعم فلا ترى إلا يد الله وأن الله هو الذي يعطيك هذه النعم، وأنه لم تقع هذه النعمة في الوجود إلا بيد الله عز وجل؛ حسن الظن بالله هو أن تحقق «**لا ملجأ منك إلا إليك**»، وتحقق قوله ﷺ: «**أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك**»، خلاص انتهت الأشياء، الأشياء كلها غير موجودة، لا قيمة لها إلا بأن يضع الله عز وجل فيها المعاني التي تريدها أو تخاف منها.

وهذه المعاني القلبية يجب أن نهتم لها.. الناس الآن يتكلمون عن الفكر!! الفكر مهم، العقل مهم؛ ولكن هذا العقل هو مرآة للقلب؛ العقل وأفكاره واختياراته وتدبيره وذكائه وتفكيره، هو مرآة لما يقع في القلب من الأعمال. الناس الآن يقرأون كتباً فكرية، يتكلمون عن الشريعة، يتكلمون عن الفقه، يتكلمون عن أصول الفقه، يتكلمون عن فلسفة الإسلام، كلمات طويلة وكثيرة تؤلف فيها كتب؛ ولكن والله هذه ليست بشيء إن لم تكن مرآة للقلب

المؤمن الذي يتعامل مع الله؛ هذه كلمات لا قيمة لها، الناس يتقنونها يحسنونها، ويرتبونها ترتيبًا منطقيًا جميلًا إبداعيًا بلاغيًا.. ولكن الكلمات التي تحقق أثرها في الوجود، وينفع الله بها الخلق؛ كما هي كلمات السلف، لأنها كانت مرآة لهذه القلوب النيرة بالإيمان، الصادقة مع الله عز وجل، التي تقوم الليل فتتكلم الكلمة فتعطي آثارها.. كما أنه إذا قام الليل أشرق وجهه فأثّر في الناس، كلماته ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ صارت كلماته نور! لأنها مرآة لعمل قلبه.

فاهتموا بهذا..

بارك الله فيكم، وجزاكم الله خيراً، والحمد لله رب العالمين.

الحلقة السادسة والعشرون:

ماذا يعني ارتباط الإيمان والبلاء؟

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه؛ وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين.

يسأل أحدهم –هذا ليس سؤالاً!! ولكنه حالة من فهم كلام النبي ﷺ–: لماذا الأنبياء هم أشد الناس بلاء؟ هل البلاء هو فقط لأنه قدر لازم بأمر غير مفهوم؟ هل العلاقة بين الصلاح والتقوى وبين البلاء علاقة غير مفهومة؟

هذا غير صحيح، بل هي علاقة مفهومة.

الإمامة في الدين –التي تمثلت في الأنبياء عليهم السلام وفي حواريهم وفي أصحابهم– كان المطلوب منها أن تقوم بأعظم الأعمال، وأن تقوم بما هو من العزائم وليس من الرخص؛ الأنبياء لا يسعهم الرخص، والأئمة لا يسعهم الرخص..

النبي ﷺ لما جاءه من ارتد ثم عاد للإسلام –أحضره عثمان رضي الله عنه لما دخل النبي ﷺ مكة– وهو عبد الله بن أبي سرح، فدخل على النبي ﷺ وتاب، والنبي ﷺ يعرض عنه وهو يرجوه أن يعفو عنه، حتى كرر ثلاثًا؛ ثم قبل النبي ﷺ عودته وتوبته. فالصحابة رضي الله عنهم سألوه: لم فعلت هذا؟! فالنبي ﷺ قال مشيرًا إليهم: «**لو أن أحدكم قام فضربه بالسيف**»؛ فالصحابة قالوا: لو أنك أشرت إلينا! يعني: أشرت بيدك، أشرت بعينك ما نفهم منه أن نقوم فنقتله. فقال: «**ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين**».

انظر! هذه مقامات عليا، الأنبياء كلهم لا ينفعهم إلا درجة العزائم، والحواريون كذلك لا تنفعهم إلا درجة العزائم، أن يأخذوا بالقوة؛ الأنبياء لا يسعهم في موطن البيان قوله ﷺ: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»؛ لا يسعهم أن يغيروا في قلوبهم، لا يسعهم إلا أن يصدعوا..

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ تصور موسى عليه السلام يدخل على طاغية العصر ويقول له: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾!! هذه كلمة لا يقوم لها إلا الأفذاذ العظام.

فكون هؤلاء الأئمة العظام من الأنبياء ومن الحواريين لا يسعهم إلا أن يقوموا بالعزائم ويصدعوا بالحق.. وهذا الصدع بالحق له ثمنه؛ ثمنه التشريد، ثمنه الإخراج، القتل، السجن..، أنبياء قتلوا، وأنبياء حبسوا، وأنبياء نفوا..

ما من نبي إلا وهاجر؛ الأنبياء هاجروا، فارقوا أحبابهم.. ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ القرآن عادل بين قتل النفس والخروج من الديار؛ الغربة شيء مؤلم أن يخرج المرء من وطنه ومن بلده..

فهؤلاء الأنبياء بسبب أنهم أخذوا بالعزائم.. إبراهيم عليه السلام، هذا الفتى، يذهب إلى الأصنام المعبودة التي يقدرونها ويقدسونها فيحطمها.. أخذ بأعظم ما يكون، وهنا البلاء..

ومن هنا في قصة الغلام والساحر: الراهب -رضي الله عن الراهب والفتى- أخذ بجانب السلامة والعزلة، وعاش بعيدًا عن الفتن موحدًا لربه معتزلًا الناس؛ الله أراد الفتى لأمر آخر، هذه درجة عظيمة. وأرجو من الإخوة أن يرجعوا إلى شرحي لهذا الحديث، وأرجو أن أكون قد وقفت لبعض الجوانب المهمة في هذا الحديث؛ من مقامات الناس، ومن اختياراتهم، ومن أن لا يعيب من أراد السلامة على من أراد الأخذ بالعزائم، حتى لو كان أخذ هذا الفتى بالعزائم تضر بالشيخ الجالس السالك مسلك العزلة. الراهب بعد أن جيء به وعذب لم يجعل يسب على الفتى: أنت ورطتنا! وذبحتنا! وقتلتنا! لا.

إذًا: ما معنى "كلما زاد الإيمان زاد البلاء"؟ زيادة الإيمان يعني زيادة الصدع بالحق، يعني أن يأخذ المرء بالعزيمة، أن يقول الحق وأن يصدع به..؛ فحينئذ الناس لا يحتملون، لا يقبلون، يعادونه، وربما يُقتل، وربما يعزل -يعتزلونه، لا أحد يسلم عليه- ويمشي بين الناس غريباً؛ أقرباؤه يتبرؤون منه، أهله يتبرؤون منه، عشيرته تتبرأ منه؛ يبدأ الناس يخافون منه، يهربون.. وربما يؤخذ فيسجن، وربما يؤخذ فيقتل؛ وبهذا يتحقق البلاء.

يوسف عليه السلام، شدة البلاء وقعت عليه بماذا؟ ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ۝﴾ وقع البلاء عليه لأنه اختار العفة، لأنه اختار التقوى، لأنه اختار أن لا ينساق وراء شهوات الجموع شهوات المرأة أو النساء.

إذًا: ما الذي يحقق البلاء ويجعله قرين الإيمان؟ هو أن الإيمان كلما علا وكلما ارتقى فلا يرضى إلا بالمهمات العظمى، ولا يرضى إلا بأعظم الأمور... الإمام أحمد ﷺ، بم رفعه الله؟ كان يسعه مثلًا أن يجلس ويختفي، كان يسعه أن يداهن، كان يسعه أن يأخذ بالتَقِيّة؛ ولكنه لم يفعل، فوقع عليه البلاء.

إذًا: البلاء عندما يقترن مع الإيمان بسبب اختيار الإيمان، فإذا نزل الإيمان -«**وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**» ينكر في قلبه ويعتزل- فحينئذ مقامه من الإيمان هو هذا المقام، فإذا زاد إيمانه زادت معرفة الناس له أنه ضد هذا الباطل الذي هم فيه، وأنه يصرح به ليل نهار.

أشد الناس بلاء هم أهل الجهاد؛ لو أنهم جلسوا في بيوتهم ولم يجاهدوا لما وقع عليهم البلاء.. لكن أنهم يقوموا بالجهاد فهذا يعني أن تقطع أرجلهم، أن يهاجروا بيوتهم، أن تراق دماؤهم وأن تزهق أرواحهم.

فإذًا: كيف يتحقق البلاء مع الإيمان؟ عندما يرتفع الإيمان فحينئذ لا يختار إلا العزائم.. وهنا تأتي الكرامات الإلهية؛ انتبهوا! المرء لا يختار طريق الشدة، المرء لا يختار طريق البلاء، لكنه يقع بين خيارين: إما أن يقول الحق فيكون إمامًا، وإما أن يسكت ويسعه السكوت. ولكن لا يجوز له أن يختار الباطل؛ المرء يمكن أن يختار السكوت فهذه درجته، ولكن إذا اختار الصدع بالحق فهذه مقامات الكبار. وهنا يأتي اختيار الله عز وجل للعبيد؛ ترى أن الأمر الإلهي هو موجه لكل الناس، فيقوم هذا ويقوم هذا.. يختارهم الله، لماذا؟ للمعاني التي في قلوبهم؛ معاني الصدق، معاني الحب حب الله عز وجل، معاني التفاني في رضا الله عز وجل.

البويطي –من أعظم تلاميذ الشافعي، رحمهما الله– لما صارت فتنة خلق القرآن وقف في المسجد وقال: القرآن كلام الله، فأُخذ.. فعابوا عليه وقالوا: لم تصرح بهذا؟! قال: حتى يرى الله في أمة محمد ﷺ من يقول كلمة الحق. انظر!! هو ينظر إلى الله أنه يفرح أن هناك من بذل روحه لله؛ قال الحق من أجل أن يفرح الله، الله عز وجل يحب ذلك منه.

عليك أن تنظر إلى نفسك.. ومن كرامة الله عز وجل أن يختارك؛ أنت ليس لك الخيار ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، الخيار ليس لأحد، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾؛ هذا اختيار إلهي وتوفيق إلهي واصطفاء.. كما أن النبوة اصطفاء، فتحقق بعض معانيها من أعمال النبوة –من الصدع بالحق، من الشجاعة، وحسن الخلق، والقيام بالحق– هذه كذلك معانٍ يصطفيها الله عز وجل.

الله عز وجل اصطفى هؤلاء –نظر إليهم فوجد قلوبهم أحسن القلوب– فقاموا وبذلوا الأرواح والمهج لله عز وجل. فعليك في هذه الأيام أن تدعو أن يختارك الله؛ أن يختارك شهيدًا، أن يختارك الله إمامًا.. فحين تكون إمامًا للمتقين فاعلم أن في هذا تكلفة ومشقة يجب عليك أن تدفعها.. والذين يطلبون المعالي بلا مشقة، هؤلاء يطلبون قصوراً من الورق؛ مصنوعة من ورق ولا قيمة لها، وهذه لا تسمن ولا تغني من جوع.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الحلقة السابعة والعشرون:

موعظة في الذكر والدعاء

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه:

أيها الإخوة الأحبة: من باب التذكير –ذكّرنا عند بداية رمضان، وذكّرنا عند بداية العشر الأواخر من رمضان، وكذلك نذكّر في هذه الأيام–: هذه الأيام تشد فيها الخيول، هذه الأيام يظهر معنى التنافس، ويظهر معنى اللحوق بالأعمال ليُدرك المرء الدرجات العظمى؛ هذه الأيام هي أيام النهايات الجميلة، هي أيام العلاقة مع الله ونزول الخيرات والكرامات من الله؛ هذه ليلة السابع والعشرين من رمضان.. فالمطلوب هو أن يبذل المرء، أن يقوم لله عز وجل، أن يكثر من الدعاء.

أعظم ما يحقق به العبودية في هذه الأيام هو أن يقوم مصليًا، أن يأخذ القرآن –إن كان حافظًا فهذا هو وقته ليقوم بالقرآن، ليكرمه الله عز وجل بالقرآن، لأن يكون كذلك من أهل القرآن؛ وإن لم يكن حافظًا، فهذا وقت ما قاله الزهري عليه رحمة الله أن الصالحين كانت سيرتهم إذا قاموا أن يقرؤوا القرآن– هذا وقت القرآن، هذا وقت البكاء، أي: رفع اليدين والاستغاثة بالله عز وجل، أن ترفع يديك مستغيثًا بالله عز وجل أن ينجيك.

أيها الأخ الحبيب: هذه دار انقطاع، هذه دار فتن، هذه دار مشقات؛ سقط فيها ناس كثير، ناس كثير كانوا من أهل العلم باعوا دينهم للشيطان، فسقطوا من عين الله وسقطوا من عين البشر.. وكان هناك ناس كثير من أهل الجهاد صاروا من أهل الردة والمعاصي وانقلبوا على أعقابهم.. وكان هناك كثير من العُبّاد، تركوا عبادة الله عز وجل وغيروا دينهم، صاروا من أهل الدنيا وصاروا من عباد الدنيا.

المرء تتناوشه فتن عظيمة؛ نفسه التي بين جنبيه، الشيطان، عائلته، المجتمع، الأقرباء، الأصدقاء..؛ هؤلاء كل واحد منهم يريد أن يشدك إليه، يشدك إلى دنياه.. ولا ينفعك إلا أن تدعو الله عز وجل دعاء الغريق.

هذا وقت أن ترفع يديك؛ أن ترفع يديك حتى يبين بياض إبطيك، تستغيث بالله عز وجل استغاثة الغريق.

أيها الإخوة الأحبة: الطاعات هذه التي أنت عليها، ادعُ الله أن يحفظها لك، ادعُ الله سبحانه وتعالى أن يبارك لك فيها، ادعُ الله سبحانه وتعالى أن تجدها يوم القيامة عنده جل في علاه، أن تجدها محفوظة غير ضائعة، أن تفعلها وأن تحافظ عليها.

في هذه الأيام –أيها الإخوة الأحبة– عليكم أن تكثروا من الاستغفار، فإن الاستغفار هو خاتمة الأعمال؛ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ

تَوَّابًا﴾، الاستغفار يكون بعد القيام بالأعمال.. ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾، قاموا الليل فخافوا ألا يقبل الله عز وجل عملهم، فقاموا مستغفرين الله عز وجل من أجل أن يجبر النقص؛ لأنه ما من عبادة تامة! ما من عبادة يستطيع المرء أن يقوم بها كيما تليق بوجه الله؛ أي عبادة هذه التي تقوم بها.. كم مشاغل القلب في الدنيا والنظر إلى الأشياء؟ كم تقوم بالعبادات وأنت في غفلة؟ فهذه الأعمال لابد أن تُجبر، أن يجبرها الله؛ بماذا؟؟ بأن يستغفر الله سبحانه وتعالى، تستغفر من أعمالك حتى ولو كانت صالحة! لأنك لم تقم بها على وجهها الصحيح. ولذلك كان من سنته ﷺ إذا صلى أن يستغفر عقب الصلوات ثلاثًا، عليه الصلاة والسلام.

فلذلك: عليك الآن أن تكثر من الاستغفار، أن تستغفر باكيًا دامعًا لله عز وجل؛ وأن تطلب منه سبحانه وتعالى أن ينجيك..

أمامك أهوال: أمامك القبر، أمامك الحشر، أمامك الميزان، أمامك الصراط؛ هذه محطات عظيمة تنتظرنا جميعًا -هشام بن عبد الملك لما حضرته الوفاة جمع أولاده، فجعلوا يبكون؛ قال: أنا أعطيتكم الدنيا وأنتم لا تعطوني إلا البكاء! فماذا ستنفعونني عند الله عز وجل- مالك ماذا سينفعك؟! جاهك ماذا سينفعك؟! يؤتى بالرجل العظيم يوم القيامة يحشر على صورة الذر تدوسه الناس بأقدامهم.

﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾، المال كنز إن لم تؤدِ زكاته.

فهذه أوقات -أيها الأخ الحبيب- عليك أن تقبل على الله بطاعة، عليك أن تدعو الله عز وجل أن يختارك، أن يتقبلك، أن يعتقك من النار، أن يجعلك من أوليائه.

يا أيها الأخ الحبيب: سليمان عليه السلام، وهو النبي الملك، ماذا دعا؟ ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ وكذلك موسى عليه السلام، عندما اعتذر له أخوه ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾، فدعا بعد ذلك: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

انظر إلى سورة الأنبياء! ما هي سورة الأنبياء؟ هي حديث عن أشواق الأنبياء، حديث عن حاجاتهم، حديث عن عباداتهم، حديث عن شخصياتهم؛ سورة الأنبياء عمدتها ومقصدها هو الحديث عن الأنبياء: كيف كانوا يسألون الله عز وجل؟ -ماذا سأل زكريا عليه السلام؟ ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدًا﴾؛ كيف دعا أيوب ربه سبحانه وتعالى عندما وقع عليه البلاء؟ ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ وهذه في سورة "ص"- وكيف دعا الأنبياء؟ كيف طلبوا من الله عز وجل؟.

فهذا -شأن الحديث عن الصلاح بينك وبين الله- هذا شيء مهم؛ لا يغرك ما يقول الناس، لا يغرك ما تفعل أنت بينك وبين الناس! المهم أن تكون علاقتك مع الله عز وجل.

هذه أوقات الإكثار من الاستغفار، الإكثار من الإنابة، الإكثار من التوبة، الإكثار من طلب الرحمة من الله عز وجل.

ثانيًا: الإكثار من الدعاء للمسلمين. أيها الأخ الحبيب: أنت ترى هذا البلاء.. أنت ترى كيف أن هذا الإسلام يُقاتل من الجميع، وتُنفق الأموال وتعقد الصفقات وتتم الاجتماعات وتجتمع الأفكار من أجل محاربة الدين؛ انظروا إلى حربهم على الحجاب! انظروا إلى حربهم على المرأة! انظروا إلى حربهم ضد الطهر والعفاف! انظروا إلى حربهم ضد الدين والتمسك بالشريعة! انظروا إلى حربهم ضد المجاهدين! لا يريدون الدين.. فهذا وقت الاستغاثة بالله عز وجل أن ينصر المستضعفين.

أيها الأخ الحبيب -وأنت تعيش في بيتك وتسمع هذا الكلام- تذكر أن هناك أخوة لك في السجون يعذبون، وهم لا يستطيعون رؤية أهلهم ولا أبنائهم؛ فعليك أن تتذكر هؤلاء، أن تدعو الله عز وجل بقلب صادق مع الله عز وجل أن يفك أسرهم وأن يعيدهم إلى أهلهم..

أن تتذكر أهل البلاء... ما معنى أن تكون مسلماً؟ ما معنى أن تعيش ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ۝﴾؟ لماذا جاءت هذه بصيغة الجمع؟ لأنك تعيش مع أمة، تصلي مع أمة، تؤدي الزكاة لأمة، وتحج مع أمة؛ العلاقة مع أمة.. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ هذه علاقة أمة، فعليك أن تتفاعل مع هذه الأمة.

لا تكن إمعة؛ لا تكن نظرتك فقط إلى الأشياء وإلى الدنيا وإلى جمع الأشياء أو إلى سمعة الذات.. هذا دين عظيم يحتاج إلى رجال أمثالك

لقد هيأوك لأمر لو فطنت له *** فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

أنت مخاطب من قبل الله بالقرآن.. أنت أنت؛ إذا ظننت أن القرآن يخاطب غيرك وليس أنت فهذا حجاب بينك وبين الله، لن تنتفع بالقرآن، ولن تكون من الصالحين، ولن تكون من السباقين. أنت تستطيع أن تصنع العظائم، تستطيع أن تفعل الكثير، أنت عظيم بنداء الله عز وجل لك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ خطاب الله عز وجل العظيم لك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا خطاب لك.

ومن ذلك أن تعلم أن هذا الدين ينتظرك، وأن الله سبحانه وتعالى يحب أن يرى فيك عبوديته -أن يراك عابدًا له، مخبتًا له، مخلصًا له، متفانيًا من أجل صلاح قلبك معه-؛ فلذلك لابد من النظر إلى أحوال المسلمين -لا أريد أن أذكر البلاد، أنتم انظروا إلى الخريطة-انظروا إلى البلاء الذي يعيشه أهل الإسلام ويعيشه أهل السنة!! انظروا!!

لا يسمحون لأي مسلم أن يظهر، يقتلون أي ظاهرة لصعود أي مسلم، يقتلونها ويدمرونها.. انظروا إلى أهل البدع! يقوم لهم الأئمة من الضلال، يقومون فيسوق لهم ويفتح لهم المجال، تفتح لهم التلفزيونات، يعطون الهدايا والجوائز؛ أما أهل السنة فيُحاربون، يُسجنون.. بمجرد شعورهم أن هذا يخالف أهواءهم، هذا عدو؛ ولا يعادونه فقط من أجل أهوائهم، يعادونه من أجل دينه.. ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ الخصومة الآن -بين المسلم وبين أعدائه- خصومة حول الدين، خصومة حول من يكون الحاكم، من الذي يُعبد ومن الذي يُطاع... هذا خيارك الآن، فعليك أن تنتبه لهذا.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقني وإياك لطاعته..

والحمد لله رب العالمين.

الحلقة الثامنة والعشرون:

حديث الجنة

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه؛ وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين. جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم.. آمين آمين.

ما هو أجل موضوع يتحدث فيه الخلق؟

أولًا: هو الحديث عن الله؛ عما يحب وعما يكره، والحديث عن صفاته وأسمائه وأفعاله، الحديث عن قدرته، عن سبوحيته، عن قدوسيته، الحديث عن جماله، الحديث عن مغفرته.

والأمر الثاني: الحديث عن جنة عدن؛ أرض الكرامة، ومثوى العطاء الإلهي، ومكان المائدة الإلهية التي يكرم بها أحبابه ويكرم بها أولياءه وأصفياءه.

هذه الدنيا لا قيمة لها، ولا تعدل عند الله عز وجل جناح بعوضة؛ ولذلك منع الله سبحانه وتعالى منها الأنبياء. الأنبياء لا يورثون، وعامة الأنبياء عاشوا بين الناس ولم يتركوا ذهبًا ولا فضة ولا ملكًا، إلا من اختاره الله عز وجل ليمثل نموذج النبي الملك؛ وإلا فعامة الأنبياء لم يكونوا من الملأ ولا من المترفين، بل كانوا من أهل البلاء والصبر، وكانوا –كذلك– على مثال دعاء النبي ﷺ: «**اللهم أحييني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين**».

لما عرضت الدنيا على النبي ﷺ وأن تمشي جبال مكة وراءه ذهبًا، فاستأذن جبريل عليه السلام، فأشار له جبريل أن تواضع؛ فاختار النبي ﷺ أن يكون عبدًا نبيًا وألا يكون ملكًا. فكان يجوع ﷺ حتى أنه كان يربط الحجر والحجرين على بطنه من الجوع؛ ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي على مد من شعير.

إذًا: هذه الدنيا ليست هي دار الكرامة، إنما دار الكرامة هناك.. في جنة عدن؛ التي وصف الله عز وجل أحوالها وما فيها وصفًا ممتعًا في كتابه، مشوقًا للقلوب من أجل تصبيرها –أي: هذه القلوب– من أجل مواصلة الرحلة. هذه الجنة التي هي مستقر المؤمنين بعد طول العناء في هذه الدنيا، وطول البلاء، وطول الصبر، وطول الجوع.. بعد طول الجهاد، بعد طول الصيام، بعد طول القيام، بعد الصبر على الدعوة إلى الله عز وجل والبلاء؛ بعد هذا كله، هناك في جنة عدن حيث النعيم المقيم الذي لا نهاية له، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ –وردت ﴿خَٰلِدِينَ

﴿فِيهَآ أَبَدًا﴾ عن الجنة في القرآن، وردت بمقدار أبواب الجنة الثمانية؛ وردت ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ في القرآن ثمان مرات– هم خالدون فيها أبدًا، لا موت.

بعد أن يصير أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، يؤتى بالموت على صورة كبش، فينادى أهل الجنة: من هذا؟ فيقولون: الموت!! –عرفوه، كلهم قد ذاق الموت في هذه الدنيا– وينادى أهل النار: من هذا؟ فيقولون: الموت!!. فيذبح الموت ويموت؛ الموت مخلوق، ينتهي خلاص.. لا موت؛ فينادى على أهل الجنة: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت.

هناك ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ لا يحزنون على شيء فاتهم، ولا يخافون من شيء قادم؛ لأن الجنة هي أرض السلام، دار السلام، ليس فيها إلا السلام.. الملائكة يطوفون عليهم يسلمون عليهم، والله يطلع عليهم من فوقهم ويسلم عليهم؛ وتحيتهم فيها فيما بينهم السلام. فهي سلام، لا يوجد فيها ما ينغص، لا يوجد فيها ما يخيف، لا يوجد فيها ما يتعب؛ هذه أرض السلام.

وفيها ملك عظيم لكل من يدخلها.. النبي ﷺ وصف آخر رجل يدخل الجنة، يخرج من النار من عصاة الموحدين؛ فبعد أن يخرج –كما في الصحيح– هذا العبد من النار، يلتفت إليها وينظر إليها قائلًا: الحمد الذي أعطاني ما لم يعطه أحدًا، الحمد الله الذي نجاني منك. فما أن يستقر به المقام بعيدًا عن النار حتى يقام له شجرة ذات ظل –وجاء في الصحيح أن شجر الجنة يمشي العبد في ظل الشجرة مائة عام لا يقطع ظلها.. هناك ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمًا وَمُلۡكًا كَبِيرًا﴾ نعيم وملك. وهناك لا يوجد ملك مقصور، ولكنه ملك فسيح متسع– فيقيم الله عز وجل له هذه الشجرة فينظر إليها –الإنسان هو الإنسان: لا يشبعه وادٍ ولا واديان من ذهب!! ولو كان له وادٍ لتمنى أن يكون له وادٍ آخر– فالله يقيم هذه الشجرة، فينظر العبد إليها... حمد الله أولًا أنه خرج من النار، ورأى أنه من أعظم الناس عطاءً وكرامة؛ لكنه الآن ينظر إلى هذه الشجرة! فيطلب من الله عز وجل يسأله أن يقربه من هذه الشجرة، يسمح له أن يقترب من هذه الشجرة من أجل أن يشرب من مائها وأن يستظل بظلها، فالله عز وجل يقول له: «**أتراني إن أعطيتك هذه الشجرة كنت سائلي غيرها؟**» فيقول: وعزتك وجلالك، لئن أعطيتني هذه الشجرة لا أسألك غيرها؛ فيعطيه الله عز وجل الشجرة. فلما يستقر تحت هذه الشجرة ينظر إلى الجنة العظيمة، ينظر إليها فيسأل ربه سبحانه وتعالى أن يدخله الجنة من أجل أن يتنعم بها!!. فيذكره بقسمه الذي أقسمه أنه إذا أعطي هذه الشجرة لا يطلب غيرها؛ فيقول: إن أعطيتني الجنة لا أسألك غيرها.. فيضحك النبي ﷺ بعد هذا الحديث –وهو من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه– لما حدث عبد الله بن مسعود بهذا الحديث ضحك، فقال: هلا سألتموني لم أضحك؟ فسألوه؛ فقال: أضحك لأن النبي ﷺ لما أخبر بهذا ضحك، فسأله الصحابة: لم ضحكت؟ قال: يضحك لأن الله ضحك من هذا العبد.. قال له بعد ذلك: «**لك مثل ملك أهل الأرض مرة ومرة ومرة..**» قال: أتسخر بي وأنت الملك.

فهذه الجنة نعيم... شرابها أُكرم بأن ينسب إلى عطاء الله؛ الله عز وجل قال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، العطاء الأول أن هذا الشراب من الله، كرامة من الله، ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾، الله سبحانه وتعالى يريد أن يكرمهم؛ ولذلك جاء في الحديث أن الله لم يخلق بيده في الوجود إلا أربعة ومنها هذه الجنة.. الله جل في علاه بنى هذه الجنة بيده الكريمة لتكون إكراماً لعبيده.

لا يستطيع المرء أن يصف هذه الجنة، لا يستطيع؛ لقوله ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**».

ما يحدث القرآن عن الجنة -عن الرمان، عن النخيل، عن الثمر- إنما هي أسماء تبعث هذه النفوس للشوق إليها؛ وهذه أشياء جميلة في ذهن المرء دالة على الجمال، وهو لا يستطيع أن يتصور الجمال إلا بما يحسه أو يتخيله. ولكن ما في الجنة هو فوق ما أحسه في هذه الدنيا، وفوق ما سمع في هذه الدنيا، بل فوق ما خطر على قلبه في هذه الدنيا.

هناك في الجنة ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾؛ العلماء قالوا: الشراب الطهور هو الشراب الذي لا ينتج منه قذارة. كرامته -أولًا- أنه من الله، وكرامته -ثانيًا- أنه طهور، أي: مطهر لغيره؛ وكأن البدن ينقى بهذا الشراب..

وهذا شراب متنوع بحسب ما يشتهي العبد.. في الجنة أربعة أنهار -كما في سورة مُحَمَّد-: النهر الأول من ماء غير آسن، والنهر الثاني من لبن لم يتغير طعمه، والنهر الثالث من خمرة لذة للشاربين، والنهر الرابع من عسل مصفى.

تخرج أنهار الجنة من عرش الرحمن -عرش الرحمن هو سقف الجنة، أعلاها، وأعلى درجة في الجنة هي الفردوس؛ يقول النبي ﷺ: «**إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى**» - وتخرج من هذا العرش أربعة أنهار يشرب منها هؤلاء المؤمنون.. يكرمهم الله عز وجل بها.

الله عز وجل قال: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ هو مقعد صدق! فإن الصدق هو الذي أوصلهم إلى هذا المقام؛ هو صدق، لأنه حق؛ وصدق، لا يزول.

في هذه الجنة النبي ﷺ وصف أمرًا عظيمًا.. ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾؛ الله عز وجل وصف لهذا العبد في الجنة -ليست واحدة إنما هما جنتان؛ أما الجنة الأولى فوصفها النبي ﷺ قال: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما**» وما هو أعظم من ذلك كله؟! قال: «**وما بين القوم إلا أن يكشف الله عز وجل رداء الكبرياء عن وجهه في جنة عدن**».

سنتحدث عن أعظم كرامة.. أعظم كرامة في هذه الجنة هي رؤية وجه الرحمن سبحانه وتعالى؛ الألبسة التي يلبسونها، الملك الذي يعيشونه، الشجر الذي يستظلون به، الثمار التي يأكلونها، الحور ﴿وَحُورٌ عِينٌ۝٢٢﴾.. للمؤمنين هؤلاء هذا الخلق "حور"، أي أن له الكرامة العظيمة والجمال العظيم؛ و"عين" هذا من وصف العين الجميلة، هذا وصف لعينيها ووصف لحالها ولجمالها.

الله عز وجل يكرم هؤلاء الذين تعبوا في الدنيا بهذا المستقر "الجنة"؛ ليس لهم هناك عمل، والعبادة هناك: يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهم العبد في هذه الدنيا النفس، وليس هناك غائط: إذا أكلوا خرج طعامهم من أبدانهم كرشح المسك، وعادوا قد ضمروا، أي: ليس هناك سمنة في الجنة..

النعيم العظيم في هذه الجنة لا يزول؛ أعظم ما في هذه الجنة أنها دائمة لا تنقطع، والطعام فيها ليس فيه تعب ولا مشقة، وليس هناك نوم لأن النوم هو أخو الموت والموت قد ذبح.. هناك ثمة نعيم ونعيم..

عندما نتحدث -أيها الإخوة- عن الجنة، هناك من الأشرار والفجار من يعتبر أن الحديث هذا هو حديث بدني!! أو حديث جنسي!! أو حديث عن النعيم الدنيوي المادي!! خسئ هؤلاء. مع أن هؤلاء الذين يزعمون أن هذا الحديث المادي هو تقليل لقيمة العطاء الإلهي، إلا أنك تجدهم من أخس الناس في الماديات؛ يبيع أحدهم زوجته من أجل المادة والمنصب، ويبيع نفسه من أجل المال، ويؤجر قلمه وعقله ونفسه وأهله من أجل الدنيا؛ ثم عند الحديث عن نعيم الجنة، يأتي حينئذ ويبدأ برفعة نفسه وكأنه لا يهتم لمثل هذه القضايا! الإنسان هو الإنسان، يحب النعيم.. ولذلك الله عز وجل يكرم هذا العبد بمائدة.. في هذه الدنيا يكرم الناس بحسب ملكهم؛ الرجل الثري يكرم بحسب ثرائه.. وأنت حين تتصور أن الجنة إنما هي إكرام من الله، إعطاء الله، الله يريد أن يكرمك -وهو الجواد الكريم-، يريد سبحانه وتعالى أن ينعم عبيده الذي يحبهم -الله يحبهم، اصطفاهم، رضيهم، قبل منهم أعمالهم، غفر لهم ذنوبهم- ويريد أن يكرمهم؛ فعليك حينئذ أن تتصور ما سيكون لك في هذه الجنة العظيمة.

هذه هي نتيجة هذه العبادات التي يقوم بها العبد تعبًا في هذه الدنيا، مجهدًا نفسه، من أجل أن يأتي بها يوم القيامة ليستبدل هذا العطاء منه عطاءً ربانيًا أعظم منه وأكرم.. ولا يدخل الناس الجنة بأعمالهم بل يدخلونها برحمة الله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

الحلقة التاسعة والعشرون والأخيرة:

رضا الله ورؤيته

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه؛ وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين. جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم.. آمين آمين.

عاش المؤمنون في هذه الدنيا في دار حجاب، لا يعرفون من أمور الغيب وجماله وسننه شيئًا، وأعظم ما في الغيب هو الله؛ فآمنوا بربنا سبحانه وتعالى بالغيب، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ۝٣﴾.

هذا هو الإنسان، وإلا يصبح دابة ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾، الذي يجعل الإنسان إنسانًا إنما هو الإيمان بالغيب.

والله عز وجل أقام لنفسه –وهو العظيم الجليل– بما وصف نفسه من أوصاف وأسماء حسنى، أقام من الدلائل الدالة على قدرته، الدالة على حكمته، الدالة على جلاله، الدالة على عزته سبحانه وتعالى، الدالة على جماله سبحانه وتعالى. انظر إلى هذا الكون وما فيه من جمال! هو دال على حكمة الله، دال على قدرة الله، دال على أن الله جميل سبحانه وتعالى، دال على أن الله عز وجل ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ۝٥٠﴾.

فالإنسان في هذه الدنيا فيه تشوف لأن يرى هذا العظيم وأن يبصره، من أجل أن يتمتع بهذا الجمال الإلهي؛ ولذلك كان أعظم نِعَم أهل الجنة هو أنهم يرون الله سبحانه وتعالى.

يتجلى لهم الله عز وجل فيرضى عنهم.. بعد أن يدخل ربنا سبحانه وتعالى أهل الجنةِ الجنةَ، يسألهم سبحانه وتعالى: أرضيتم؟ يقولون: كيف لا نرضى! أكرمتنا، غفرت لنا، نعمتنا بالجنة، أدخلتنا هذه الجنة دار الكرامة؛ فيقول: «**اليوم أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً**»، ثم يتجلى لهم فيرونه سبحانه وتعالى؛ فما في الجنة شيء أعظم من رؤية الله سبحانه وتعالى.

أعرابي جاء إلى النبي ﷺ –وكل هذا في الصحيحين– فقال: "يا رسول الله، هل نرى ربنا؟ " هذه القلوب الفطرية.. قارن بين هذا الأعرابي الذي يسأل النبي ﷺ فيحب الصحابة سؤاله –لأنهم منعوا من الأسئلة، فكانوا يحبون الأعراب لجرأتهم– لم يقم أحد من المتفلسفين المتكلمين الفاجرين ليتكلم عما يزعمه من تنزيه الله أنه لا يرى

جل في علاه!. فيقول: «**هل تضام في رؤية الشمس في رابعة النهار؟ هل تضام في رؤية القمر في ليلة الرابع عشر؟**» قال: لا؛ قال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا البدر**»؛ سترون ربكم.. فأعظم نعيم هو رؤية الله سبحانه وتعالى.

الإمام الشافعي رحمه الله وهو القائل بالمفهوم.. ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ۝١٥﴾ هؤلاء الفجار الذين هم في سجين -كما تقدم هذه الآية في سورة المطففين- أي: مسجونون، فالمسجون لا يرى إلا العذاب والمشقة؛ وهم في سجنهم -أي: في سجين- فهم محجوبون عن أعظم النعم، وأعظم النعم ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ۝١٥﴾. قال الشافعي رحمه الله: لما كان أعظم العذاب على الكافرين في النار أنهم يحجبون عن ربهم، دل على أن أعظم النعم للمؤمنين هي رؤية ربهم سبحانه وتعالى.

المؤمنون سيرون الله سبحانه وتعالى، سيرونه؛ سيرى المؤمنون ربهم كما يرون هذا القمر وهو في الرابع عشر -في اكتمال بدره- لا يضامون في رؤيته. والضيم هو مشقة النظر؛ مشقة النظر قد تكون بسبب أن المنظور يصيب المشقة، أو أن الناس يتجمعون من أجل رؤيته فيصيب بعضهم بعضًا المشقة، وهذا لا يحصل.. الله عز وجل يطلع عليهم وهم في منازلهم، يطلع عليهم سبحانه وتعالى فيحل عليهم رضوانه؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أكبر من الجنة، أكبر من الحور العين، أكبر من الأنهار التي تجري تحت القصور، أكبر من الثمار.. أكبر من كل ما في الجنة هو أن يحل الله سبحانه وتعالى عليهم الرضوان.

هذا الرضوان يحسونه.. يحسونه فرحًا؛ وهذا دليل على أن المؤمن همه أن يرضي الله عز وجل، أن يرضى عنه الحبيب؛ أن يرضى عنه الله العظيم هو أهم من كل شيء. وهذه تدل على نفسية المؤمن وأنه يعيش إنسانيته بطلبه الأشياء من نعم البدن -من طعام، من شراب، من رؤية- ولكن أعظم من ذلك هو أن يرضى عنه حبيبه، أن يرضى عنه ربه سبحانه وتعالى، أن يرضى عنه الملك العظيم... لو أن رجلًا سمع أن الملك رضي عنه، يفرح كأنه أعطي الدنيا وما فيها؛ لو أن الابن الذي يحب والده علم أن والده يحبه، لفهم أن هذا الحب أعظم من أشياء كثيرة في هذه الدنيا.

فأعظم ما في الجنة هو هذه النعمة العظيمة، وهي أن يرى هؤلاء المنعمون في جنة عدن والمنعمون في الفردوس الأعلى والمنعمون في هذه الدار دار المقامة، هي أن ينظروا إلى ربهم سبحانه وتعالى؛ «**والله جميل يحب الجمال**» والله سبحانه وتعالى يكشف ما بينه وبينهم من الحجاب، كما في الحديث: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم إلا أن يكشف الله عز وجل رداء الكبرياء عن وجهه في جنة عدن**» فالله يكشف الحجاب. في حديث ابن مسعود: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»؛ لكن العبد يوم القيامة يتغير، والدليل أنهم يجلسون على منابر من نور..

الآن النور ما هو؟! لا يستطيع الناس أن يجلسوا عليه، وذلك للطف النور وكثافة الإنسان وثخن مادته؛ ما الذي يتغير يوم القيامة؟ هل النور يصبح بهذه القوة ليتحمل ثخانة هذا البدن؟ أو أن البدن يصبح في سُنة جديدة وفي عالم آخر فيتسامى بأن يجلس على النور؟ ولذلك سبحانه وتعالى قال: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ وحجاب ربنا سبحانه وتعالى النور، وحجابه الكبرياء.. حجاب ربنا سبحانه وتعالى في هذه الدنيا عن المؤمنين لأنه متكبر؛ لأن هذه الدنيا أرذل من أن يتجلى الله عز وجل بوجهه عليها، فهو متكبر أن يتجلى فيها. ولكنه سبحانه وتعالى يوم القيامة يحب هؤلاء العبيد، والدار دار كرامة عظيمة تصلح لأن يتجلى الله عز وجل عليها ويكشف بينه وبين العبيد الذين فيها والنعم التي فيها، أن يكشف الله سبحانه وتعالى الحجاب.

لما طلب موسى عليه السلام من ربه أن يراه، قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ﴾، فلما تجلى الله عز وجل للجبل -والله نور- ساخ الجبل، في الحديث: ساخ الجبل؛ لماذا؟! لضعف هذا الجبل -بسبب كثافته- أن يتحمل نور الله سبحانه وتعالى. فيدل هذا على أن أهل الجنة في الجنة ليست فيهم كثافة الجبال ولا كثافة هذه الأجسام المحصورة، بل تصبح شيئًا آخر؛ تصبح من مادة أخرى هي النور، تتسامى مع النور حتى تجلس عليه.. فأبدانهم أخرى والجنة عالم آخر...

هذه فقط كلمات للتصور، كلمات للمعنى، من أجل أن تفهم كلمة النبي ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»؛ الناس يسمعون في هذه الدنيا الأشياء.. في الجنة سنن أخرى وعالم آخر.. كيف تكون هذه الأشياء من نور؟ كيف تكون؟! وأي نور فيها؟! والأيام فيها لا تنقضي، ولا يوجد فيها ليل، كلها نهار؛ ولا يوجد شمس، إنما هي مضاءة بعالم آخر، لأنها النور فلماذا تحتاج إلى الشمس؟!

ولذلك هؤلاء الذين في سجين ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴿١٥﴾﴾.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴿٢٢﴾﴾ هذا النور ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴿٢٣﴾﴾.

والأحاديث الدالة على رؤية الله متواترة، كما يقول العلماء؛ منهم ابن كثير عليه رحمة الله في تفسيره.. الأحاديث الدالة على رؤية العبيد لربهم يوم القيامة متواترة.

هذه هي النعمة العظيمة التي هي أعظم من كل النعم.. وأعظم من ذلك كله هو أن يحصل الرضوان؛ الرضوان هو صفة نفسية لله.. الناس يرون نعم الله فيتنعمون، ويرون وجه الله فيتنعمون..؛ كل هذا من ظواهر النعم، وأعظم من ذلك هو أن يشعروا برضوان الله عز وجل عليهم، ولولا الرضوان لم يتم كشف الحجاب.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا يوم القيامة من الناظرين إلى وجهه الكريم، وأن ينعمنا بالنظر إلى وجهه الكريم؛ وأن يجمعنا مع الصالحين في جنة عدن، وأن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى -واعلم أن الجنة أيها العبد درجات.. للمجاهدين فقط مائة درجة، وفي الحديث الصحيح أن ما بين الدرجة والدرجة مائة عام.. ولذلك أهل

الجنة يرون أهل الغرف العالية كما نرى في هذه الدنيا النجم الغابر في السماء. فعليك أن تسعى، عليك أن تشد الهمة في الطاعات لتدرك هذا-؛ ونسأل الله أن يغفر لنا وأن يرحمنا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات